حلمي سلام

أنا.. وثوار يوليو!!



أنا.. وثوار يوليو

الطبعة الاولى
رجب ١٤٠٦ هـ
مارس ١٩٨٦ م

الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيـع ٩٢ (أ) شـارع محمد فريد القاهـرة ـ ت: ٦٩٥٧٤

طبع بالمطبعة الفنية ت: ٩١١٨٦٢

حلمي سلام

أنا.. وثوار يوليو



رفع و تنسيق : القرصان الطيب

اهـــــداء ...

الى أخى فى الله .. وفى الوطن .. وفى القلم

الى الكاتب الذى نذر نفسه ، بكل عمق الايمان .. وبكل صدق العزيمة ، « لله .. وللحرية »» .. فأعطى الحرف .. والكلمة ، من خلال مانذر نفسه له ، طعما جديدا .. ومذاقا جديدا .. ولونا جديدا . وأضفى على الحرف .. والكلمة .. شرفا ليس من بعده شرف .

الى الكاتب الحرّ فى غير زهو .. المناضل فى غير خيلاء .

خالد محمد خالد

أهدى هذا الكتاب ..

حلمى سلام

مقـــدمــة

هـذا الـكـتـاب ، عـز يـزى الـقـارىء ، لـيس تأريخا لثورة ٢٣ يوليو التى شاءت الاقدار أن ارتبـط بهـا وأن أنـتـمـى اليها .. وهى لم تزل ، بعد ، جنينا فى رحم الغيب . كما انه ليس دفاعا عن ايجابيات هذه الثورة ــ وهـى كثيرة بتقدير كل منصفـــ فى مواجهة سلبياتها التى لا أنكرها .. وأقر ، فى ذات الـوقـت ، بـعجزى عن الدفاع عن بعضها الذى لم أجد له مـا يـبـرره الا بـأنـه نـتـاج (ثورة) .. ثورة ولدت و ولد معها ، فى ذات اللحظة ، خـصـومها وأعداؤها .. وأنه ليس ثمة ثورة فى التار يخ استطاعت أن تبرأ من مـثـل هـذا الـنـتـاج ــ بـل وممـا هـو أفظع منه وأبشع ــ بدءا بالثورة الـفـرنـسـيـة الـتـى قـطـعـت مقصلتها الرهيبة اعناق عشرات الألوف من الفرنسيين .. كان فى طليعتهم ملك فرنسا وملكتها .. وعدد من المع زعماء الـثورة نفسها . ومرورا بالثورة الروسية التى لعلها وصفت بأنها « حمراء » لـكـثـرة مـا أسـالـت مـن الـدمـاء .. وانتهـاء بـالثورة الصينية التى قادها « مـاوتـسـى تـونـج » فـانـدحـرت مرة .. وانتصرت مرات .. وكان لها فى اندحارها وانتصارها ، ألاف مؤلفة من الضحايا .

كذلك ليس هذا الكتاب انحيازا لواحد من «ثوار يوليو» ضد آخر من هؤلاء (الثوار) . انه ، باليقين ، ليس انحيازا لمحمد نجيب ضد جمال عبد الناصر . وهو، باليقين أيضا ، ليس انحيازا لجمال عبد الناصر ضد أنور السادات . وانما هو، فى حقيقة أمره « شريط ذكريات » .. ذكريات عشتها ، وعانيتها ، وأودعت بعضها ــ فى حينه ــ صفحات مذكراتى . وبعضها حفر نفسه حفرا على صفحات ذاكرتى ــ وهذه الذكريات .. وتلك .. تكشف عن أسرار كثيرة ، وتلقى الضوء على أمور كثيرة مما كان يدور فى دهاليز «ثورة يوليو» ولا يعلمه أحد . وكذلك مما كان يدور فى رؤوس رجالها ، وايضا لايعرفه أحد. فالى ماقبل تفجر الخلاف ، بصورة علنية ، بين الرئيس الراحل محمد نجيب وبين زملائه اعضاء مجلس الثورة فى مارس سنة ١٩٥٤ ، كان لدى كل الناس فى مصر ، وربما فى العالم العربى كله ، تصور بأن مجلس قيادة الثورة ليس الا رأسا واحدة تحملها اكتاف ١٢ رجلا هم أعضاء ذلك المجلس . ولم يكن هذا التصور سوى خيال جميل أحبت الملايين التى تعلقت قلوبها بالثورة ، فور قيامها ، أن تعيش فيه .. وأن تعيش به . أما الحقيقة فكانت شيئا آخر غير هذا الخيال الجميل الذى رسمه ملايين الناس لأنفسهم .

ذلك أن مجموعة الرجال الذين قاموا بثورة يوليو كانوا بشرا .. ولأنهم كانوا بشرا ، فقد تباينت بالتالى أراؤهم وأفكارهم .. بنفس القدر الذى تباينت به أهدافهم وطموحاتهم . ومن هنا ، لم تكن علاقتهم ببعضهم البعض فى مثل صفو السماء .. وانما كانت كالسماء نفسها : فيها

سحب .. وفيها غيوم .. وفيها رعود ... كانت ، فى بعض الأحيان ، تنذر بسيول جارفة .

ولقد بدا ذلك واضحا لاعين اولئك الذين دفعت بهم أقدارهم الى دهاليز الثورة ـ وكنت واحدا منهم ـ منذ الايام الأولى التى كانت الثورة فيها ماتزال (عروسا) تزفها مصر كلها . واحسب أنه لم يعد سرا ماحدث فى مجلس الثورة بعد يومين اثنين فقط من مغادرة الملك السابق «فاروق» لأرض مصر . لقد انسحب «جمال عبد الناصر» ـ الرجل الأول فى ثورة يوليو ـ من مجلس القيادة ولزم بيته . حدث ذلك عندما طالب زملاءه اعضاء المجلس بأن يدلوا بأصواتهم على الطريقة التى سوف تحكم بها مصر ، بعد خروج الملك واستقرار الأمر فى أيديهم . وهل تكون هذه الطريقة هى : الدكتاتورية .. أم الديمقراطية . وتمت عملية التصويت بصفة سرية . وعند فرز الأصوات ، فوجىء «عبد الناصر» بأنه الوحيد الذى صوّت فى صف الحكم بالديمقراطية .. بينما صوّت زملاؤه جميعا فى صف الحكم بالديكتاتورية !!

عندئذ .. اعلن «عبد الناصر» انسحابه من مجلس قيادة الثورة ولزم بيته .. وكان هذا هو (الخلاف رقم ١) فى تاريخ هؤلاء الثوار ، ولكن زملاء «عبد الناصر» كانوا يدركون أنه عقل الثورة ومهندسها ، وبالتالى فانهم لم يتركوه لبيته .. وانما ذهبوا اليه حزمة واحدة ، وعادوا به الى مجلس القيادة ، بعد أن أعلنوا عدولهم عن الحكم بالديكتاتورية !!

لقد ذكر (السادات) هذه الواقعة ، بحذافيرها ، فى صفحتى ١٥٨ و١٥٩ من كتابه : «البحث عن الذات» . كما ذكرها

(عبد اللطيف البغدادى) فى صفحتى ٧٠ و٧١ من الجزء الأول من مذكراته .. ومن هنا قلت : « انها لم تعد سرا » .

كذلك .. لست أنسى ــ على سبيل المثال ــ اليوم الذى طلب منى فيه « جمال عبد الناصر » أن أسلط (كل الأضواء) فى كل ما أكتبه وأنشره على صفحات (المصور) على « محمد نجيب » بوصفه رئيس مجلس الثورة . فلما أن فعلت ما طلبه « عبد الناصر » ، اذا بهذا الذى فعلته يثير ضدى ثائرة قائد الجناح جمال سالم عضو المجلس . ومن ثم ، راح ينتهز كل مناسبة لكى يهاجمنى بعنف خاص اشتهر به .. وبألفاظ خاصة اشتهر بها ايضا . !!

وعندما علمت بهذا الهجوم الذى راح « جمال سالم » يشنه ضدى ، أفضيت به الى « عبد الناصر » الذى لم يكن بطبيعة الحال يجهله ، فكان رده : « استمر .. ولا تكترث » .

وكان طبيعيا أن آخذ برأى الرجل الأول فى الثورة .. فاستمر ولا أكترث . ولكن ، كان من شأن هذا الاختلاف بين الرجلين فى وجهتى النظر ، أنه خلق بين جمال سالم و بينى (هوة واسعة) ما أظن أنها ضاقت ، ابدا ، الى أن فارق الرجل دنيانا . !

وعلى حين كان « عبد الناصر » قمة فى القدرة على ضبط نفسه ، وفى السيطرة المذهلة على مشاعره وانفعالاته ، كان « جمال سالم » ــ ومثله

شقيقه «صلاح سالم» .. وان يكن بدرجة أقل ــ عاجزا كلية عن ممارسة أى قدر من السيطرة على نفسه .. وعلى مشاعره وانفعالاته .. فلست أنسى ــ على سبيل المثال أيضا ــ ذلك اليوم الذى أصدرت فيه (محكمة الثورة) التى تكونت برئاسة «جمال سالم» لمحاكمة عدد من أقطاب جماعة الأخوان المسلمين، والتى تميزت ادارته لها .. ومناقشاته للمتهمين الماثلين أمامها بأنها لم تكن محاكمة .. بل كانت مهزلة صارخة، اسقطته من أعين الناس .. وأكسبت المتهمين عطف الجماهير كلها بمن فيهم أولئك الذين كانوا ــ الى ماقبل هذه المحاكمة المهزلة ــ يناصبونهم الخصومة والعداء. أقول ــ لست أنسى اليوم الذى أصدرت فيه «محكمة جمال سالم» هذه، حكمها باعدام عدد من هؤلاء الاقطاب، كان من بينهم المرحوم «عبدالقادر عودة». فلما عرض الحكم على مجلس الثورة للتصديق عليه، ابدى «عبدالناصر» معارضته للحكم باعدام «عودة» .. فما كان من «جمال سالم» الا أن ترك العنان لاعصابه لكى تتكلم ... ولكى تقذف «عبدالناصر»، فى وجهه، بكل مالا يليق أن يصدر من عضو فى مجلس الثورة، فى حق الرجل الأول فى هذه الثورة ..

ولكن «عبدالناصر» ــ بقدرته المذهلة على ضبط نفسه، وعلى التحكم العجيب فى مشاعره وانفعالاته ــ افسح المجال للعاصفة لكى تمر. اذ لم يكن وقتها، قد انتهى من تجهيز نفسه لكى يبدأ فوق (رقعة الشطرنج)، وكان من أمهر لاعبيها، ذلك التحرك الحاذق الذى بدأه، فيما بعد، واقتلع به «الملك» .. وعزل به «الوزير» .. وجمد به حركة أكثر من «حصان» كان جامحا. !!



الرئيس الراحل محمد نجيب في مكتبه بمجلس قيادة الثورة . ومعه الكاتب في صورة يرجع تاريخها الى سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

وكان محتما أن تسفر المباراة ، فى النهاية ، عن نتيجتها الطبيعية .. وهى أن البقاء لابد وأن يكون للأقوى .. وكان « عبد الناصر » هو الذى بقى .

....

....

من هذه الأمثلة الثلاثة التى سقتها ــ وغيرها فى هذا الكتاب كثير ــ نستطيع أن نتأكد من أن الصورة الحقيقية لأعضاء مجلس الثورة ، لم تكن هى ذلك الخيال الجميل الذى رسمه الناس لأنفسهم . لم تكن الصورة لرأس واحدة تحملها أكتاف ١٢ رجلا . وانما كانت الصورة ل ١٢ رأسا تحملها اكتاف ١٢ رجلا : كل له خصائصه وصفاته . وكل له أراؤه وتوجهاته . وكل له ، فيما بينه وبين نفسه ، طموحاته وتطلعاته .

ومن بين هؤلاء الرجال الـ ١٢ كانت لى ــ قبل أن تقوم الثورة بسنوات .. وبعد أن قامت ــ علاقة صداقة حميمة بسبعة منهم . على رأسهم : محمد نجيب .. وجمال عبد الناصر . والأول هو الرجل الذى تصدى ، وبكل البسالة والوطنية والشجاعة ، لقيادة سفينة الثورة عند أول نزولها الى بحر الحياة وسط خضم من الأمواج العاتية التى سوف يسجل له التاريخ أنها لم تخفه .. ولم تفزعه . أما الثانى : فهو ، كما أسلفت ، عقل الثورة ، وصانعها ، وربانها الذى دانت له قيادة سفينها حقبة من الزمان امتدت الى ١٨ سنة حافلة بالانتصارات والانجازات .. وبالمد والجذر . وايضا بكبوات ما أظن أن (جوادا) شارك فى سباق

طويل ورهيب .. ومحفوف بالعقبات والمخاطر .. كذلك السباق الذى شارك فيه « عبد الناصر » ، استطاع أن ينجو بنفسه منها . !!

ومع أولئك الرجال الذين أنعقدت أواصر الصداقة بيني و بينهم ـــ قبل آن تقوم الثورة بسنوات .. و بعد أن قامت ـــ كانت لى لقاءات .. وجلسات .. و .. وصدامات ايضا . وهذه اللقاءات ، والجلسات ، والصدامات هى التى اشتملها (شريط الذكريات) الذى تنطوى عليه دفتا هذا الكتاب الذى بين يديك .. والذى سوف ترى ، من خلاله ، أننى لم أكن بمثابة (جهاز تسجيل) مهمته الوحيدة أن يلتقط و يسجل .. دون أن يكون له ، فيما يلتقط و يسجل ، رأى ولا رؤية . وانما كنت ـــ وعلى العكس من أى (جهاز تسجيل) ـــ التقط واسجل .. وكانت لى ، فى ذات الوقت ، رؤيتى الخاصة .. وأيضا رأيى الخاص فيما كنت التقط وأسجل .. وكان بعضه يملأ قلبى بالرعب من أن تتعثر خطى الثورة ... أو ان ترتد عن مسيرتها . ولقد أوشك شىء من ذلك أن يحدث بالفعل فى مارس سنة ١٩٥٤ ، نتيجة لتلك الخلافات فى الرأى .. وفى الرؤية ... والتى لمحتها ، مبكرا جدا ، تطل برأسها على رفقاء السلاح الذين قاموا بثورة تعتبر واحدة من اعظم ثورات العصر ، اذا نحن قسناها بحجم التغييرات الجذرية التى احدثتها فى كيان المجتمع المصرى الذى قامت منه . أو بحجم التغييرات الجذرية ايضا التى أحدثتها فى كيان المجتمعين العربى والأفريقى اللذين امتدت اليهما آثارها بدءا من الجزائر فى أقصى المغرب .. ومرورا باليمن فى أقصى المشرق .. وانتهاء بافريقيا السوداء التى كانت كلها ، باستثناء

اثيوبيا ، واقعة تحت نير احتلال اجنبى باطش لم يكن واردا ضمن مخططاته أن يتخلى عنها لأصحابها ، لولا أن قامت (ثورة يوليو) .. واستطاعت أن تشعل النار من حوله ، وأن تزلزل الأرض تحت قدميه . !!

و بعد ، عزيزى القارىء ، أسمح لى قبل أن أنسى .. وقبل أن يعدو الزمان على الذاكرة ــ وللزمان مخالب وانياب ــ فيلتهم منها القليل أو الكثير . . فتغدو قادرة على تذكر اشياء ، وعاجزة عن تذكر أخرى . وقبل أن تزحف الظلال على الالوان فتفقدها تحددها ، فلا يصبح الأبيض ابيض ، ولا الأسود أسود .. وانما يغدو كل شيء ، بفعل مخالب الزمان وانيابه .. وزحف الظلال على الالوان ، مختلطا .. و باهتا .. ومتأرجحا بين الصدق غير المؤكد والكذب غير المقصود . وقبل أن تسقط الحقيقة فى بئر النسيان .. و يصبح النزول الى هذه البئر ، فى محاولة للعثور عليها ، ضر با من المحال .. وقبل أن تضيع من عينى ملامح أولئك الرجال . ومن اذنى أصواتهم .. وقبل أن تبلى أوراقى التى أودعتها الكثير من أقوالهم .. ومن أفعالهم وانفعالاتهم التى تحدد ، و بلا أى رتوش ولا أقنعة ، صورهم الحقيقية التى قد يعرفها بعض الناس ، ولا يعرفها أكثر الناس ــ قبل أن يحدث شيء من هذا كله .. أسمح لى ، عزيزى القارىء ، أن أقدم لك هذا الكتاب الذى أرجو أن أكون قد أديته بالأمانة و بالصدق اللذين بدونها ، لا تكون هناك أية قيمة لأى كاتب .. ولا لأى كتاب .

يناير ١٩٨٥

حلمى سلام

الفصل الأول :

محمد نجيب : والبداية .. كلمة

كانت البداية كلمة ...

كلمة كتبتها عنه ، بمناسبة انتخابه رئيسا لمجلس ادارة نادى الضباط فى ينايرسنة ١٩٥٢ . وقد نشرت هذه الكلمة بالعدد رقم ١٤٢٣ من (المصور) بتاريخ ١٨ يناير سنة ١٩٥٢ ، ضمن فقرات باب اسبوعى كنت أقدمه ، حينذاك ، تحت عنوان : (يتحدثون عن ...) وقلت فيها :

« يرهق الناس اعصابهم بحثا عن صداقة خالصة ، وأصدقاء خلصاء .. و يطلقون عبارة « صداقة العيش والملح » على كل صداقة متينة تقوم بينهم .. ولكن اللواء محمد نجيب الذى تحدث عنه الناس ، هذا الأسبوع ، بمناسبة انتخابه رئيسا لنادى الضباط ، يسمى صداقته لبعض زملائه « صداقة العيش والدم » .

« وسوف لا تستغرب هذه التسمية ، عندما تعرف أن دم محمد نجيب قد سال ثلاث مرات فى جبهة القتال بفلسطين ، وأن هؤلاء الزملاء كانوا على استعداد لأن يمنحوه بعض دمائهم أو كثيرا من دمائهم .. لكى لا تهرب من صدره الحياة .

ولقد كان هذا الدم .. دم محمد نجيب ، سببا فى واحدة من الأزمات الكبيرة التى كثيرا ماقامت بين قائد القوات المصرية المحاربة فى فلسطين ، اللواء أحمد فؤاد صادق ، وبين رئاسة الجيش فى القاهرة .. فلقد طلب قائد القوات ترقية البطل الجريح الى رتبة اللواء ، بصفة استثنائية ، تقديرا لاعماله المجيدة فى ميدان القتال . لكن القاعدين على الكراسى الوثيرة فى القاهرة ، لم يكونوا ليحسوا مايحسه فؤاد صادق .. ولا ليروا مايراه .. فلم يستجيبوا لما اقترحه بشأن محمد نجيب ، واكتفوا بأن منحوا البطل « نجمة فؤاد الذهبية » . وعلى الرغم من أن هذه « النجمة » هى ارفع وسام عسكرى ، الا أنها بقيت ــ من وجهة نظر اللواء فؤاد صادق ــ دون مايستحقه « نجيب » .. فغضب وثار .. وكانت أزمة من الأزمات .

« والرجل الذى تحدث الناس عنه ، هذا الأسبوع ، مقسم بين شطرى الوادى .. مقسم ، حقيقة لا مجازا ، فهو مولود لأب مصرى وأم سودانية ، وهذا هو سر ذلك الحب العميق الذى يحمله قلب محمد نجيب لأخوانه أبناء الجنوب . والسودانيون الذين يجيئون الى القاهرة ، لأول مرة ، يعرفون أن لهم فيها بيتين : بيت السودان ... وبيت محمد نجيب .

ومحمد نجيب شديد التقرب الى الله .. وهو يتقرب اليه بعمله ، وبقلبه ، ولسانه . وهو يؤمن بربه ايمانا يعلو به فوق الألام ، وفوق المصائب .. فى العام الماضى ، فقد ابنته الوحيدة ــ وكانت طالبة فى السنة النهائية بكلية الحقوق ــ وحينا ذهبت ، بصحبة اللواء فؤاد صادق ، لأعزيه فيها ، كنت أتخيل أن المصيبة لابد وأن تكون قد هدمته ، وتركته شبحا من الأشباح . لكننى تبينت أننى كنت مخطئا اذ تخيلت أنى سأرى الرجل على تلك

الصورة .. فلقد وجدته جلداً .. ثابت اليقين ، كما عهده كل الذين عرفوه .. وعندما عزيته فى فجيعته ، لم يزد على أن قال : « كانت وديعة لله عندى .. وقد استرد الله وديعته » . ثم انتقل بالحديث الى ناحية أخرى .. وكانت كريمته ماتزال مسجاة فى فراش الموت . !

« ان « محمد نجيب » أمل ضخم من آمال الجيش .. وآمل الجيش اليوم منحصر كله فى المستقيمين الانقياء .. و« نجيب » على رأسهم » .

قرأ « محمد نجيب » كلمتى هذه .. وتأثر بسطورها ، وبما بين سطورها ، فجاء بنفسه الى (المصور) ليشكرنى عليها . وفى هذه اللحظات نفسها ، ولدت صداقتنا الحميمة التى لم أندم عليها قط . على الرغم من كل المكاسب التى أضاعتها علىّ هذه الصداقة . وعلى الرغم ، ايضا ، من كل الخسائر الكثيرة التى ألحقتها بى . فليس باستطاعة أحد ، مهما بلغت درجة مخاصمته للحقائق ، أن ينكر على محمد نجيب وطنيته ولا شجاعته ولا نظافته . وهى صفات ثابتة وأصيلة فى نسيجه ، تجعلك لا تملك الا أن تحمل له ، وفور أن تعرفه وتقترب منه ، اعظم الحب واعمق الاحترام .. ومن أجل هذه الصفات نفسها ، وليس من أجل أى شىء آخر سواها ، أجمع (ثوار يوليو) الذين كانوا قد الزموا أنفسهم بأن يزنوا كبار الضباط فى القوات المسلحة ، بميزان الذهب ، ليختاروا من بينهم واحدا يولونه قيادة ثورتهم ، على الاستقرار عليه بعد أن اعتذر عن قيادتها

الفريق عزيز المصرى بكبر سنه . ثم تلاه فى الاعتذار اللواء فؤاد صادق ، لاعتبارات سوف يجىء ذكرها .

... ومضى محمد نجيب فى طريقه يواجه الخطر ــ بوصفه « قائد ثورة ٢٣ يوليو» ، وليس بوصفه « القائد العام للقوات المسلحة » ــ وكان ذلك صحيحا الى أبعد حد .. وان بقى الفارق الكبير بين « قائد الثورة .. و«صانع الثورة» .. موجود دائما .

فلقد آثر « صانع الثورة » أن يبقى فى المؤخرة لاعتبارات محسوبة ليس من بينها « الجبن » كما يزعم نفر من الموتورين .. لأنه لو كان بجمال عبدالناصر ذرة من جبن ، لما جرؤ ــ أصلا ــ على مجرد التفكير فى تنظيم مثل هذه الثورة ... ولأن «صانع الثورة» آثر البقاء فى المؤخرة ، فقد ترتب على ذلك ، أن تم كل شيء جسيم وخطير ، باسم الرجل الذى قبل بكل شجاعة الرجال ، وبكل بسالة الرجال ، أن يأخذ مكانه فى المقدمة . واذن ... ومهما يكن من أمر الخلاف مع محمد نجيب ، أو الاختلاف عليه .. فسوف تظل تلك القرارات الثورية البالغة الأثر والخطر التى اتخذتها ثورة يوليو فى أيامها وشهورها الأولى .. والتى أذاعها الرجل بلسانه ، أو وقعها باسمه ، محسوبة له فى رصيد شجاعته .

* فلو لم يكن الرجل وطنيا ... بل وفدائيا أيضا لما استطاع ــ ابتداء ــ أن يقبل بقيادة الثورة .

* ولو لم يكن شجاعا لما استطاع أن يوجه للملك انذارا ، يحمل توقيعه ، يطالبه فيه بالنزول عن عرشه .

* ولولم يكن شجاعا لما استطاع أن يتحدى «الاقطاع» و يوقع «قانونا» باسقاط قلاعه.

* ولولم يكن شجاعا لما استطاع أن يوقع «اعلانا» بانتهاء «دولة الأحزاب» .. على ما كان لهذه الدولة من قوة ظاهرة على السطح .. ومن جذور ممتدة فى الاعماق.

* ولولم يكن شجاعا لما جرؤ على أن يوقع قرارا ينهى به «أسرة محمد على» .. و يزيل من الوجود المصرى «ملكية طاغية» كان لها من العمر، وقتئذ، ١٤٧ سنة.

غير أن هذا كله شيء، وعلاقة الرجل بالثورة شيء آخر .. وليس صحيحا ــ مطلقا ــ مازعمه البعض من أن الثورة كانت ثورته وسرقها منه عبد الناصر. كذلك ليس صحيحا ــ مطلقا ــ مازعمه آخرون من أن محمد نجيب لم يكن يدرى عن ثورة ٢٣ يوليو شيئا، الا قبل ساعتين اثنتين من «ساعة الصفر» .. !! فذلك زعم ترفض القبول به أشد العقول سذاجة .. فلم يكن «صناع الثورة» اطفالا، وايضا لم يكونوا ساذجين لكى يأتوا برجل لا يعرف عنهم، ولا عن ثورتهم شيئا، و يولونه قيادتها .. قبل ساعتين ــ فقط ــ من قيامها !! فذلك شيء أدنى الى الهزل والعبث .. ولم تكن الثورة هازلة ولا عابثة. ولو أنها كانت كذلك، لما قدر لها أن تقف على ساقيها. و يقينى أن الذين يروجون هذا الزعم ــ نيلا من دور محمد نجيب فى ثورة يوليو ــ انما ينالون به من الثورة نفسها .. ومن «صانعها الحقيقى» أكثر مما ينالون به من محمد نجيب

الذى جرى أول اتصال به ، من ناحية «صناع الثورة» ، قبل اربع سنوات من قيامها .. وبالتحديد فى سنة ١٩٤٨ .

● رجعة الى الوراء ..

وأذكر أننى ، بعد أن استقرت الأرض تماما تحت اقدام ثورة يوليو، بدأت أنشر فى مجلة «المصور» سلسلة مقالات تحت عنوان «قصة ثورة الجيش .. من المهد الى المجد» . وكان الذين يغذوننى بالمعلومات عن الثورة ــ منذ أن كانت «حلما» يراود خيال جمال عبد الناصر بوصفه زعيما للضباط الأحرار، والى أن صارت «حقيقة» يتولى محمد نجيب قيادتها ــ هم بالتحديد : عبد الناصر الذى عرفنى به الفدائى البطل معروف الحضرى فى اوائل سنة ١٩٤٩ .. وعبد الحكيم عامر، وقد عرفنى به عبد الناصر، فى سنة ٤٩ ايضا ، .. ثم صلاح سالم الذى عرفنى به ، فى نفس السنة ، اللواء أحمد فؤاد صادق .

وأذكر أننى خصصت حلقة فى تلك السلسلة من المقالات التى كان هؤلاء الأصدقاء الثلاثة يغذوننى بمعلوماتها ، لعلاقة محمد نجيب بالثورة .. جعلت عنوانها : «عبد الحكيم عامر يقول لعبد الناصر بعد أن تعرف على محمد نجيب : لقد اكتشفت لك كنزا» .

وكان ذلك ــ بالحرف ــ هو نص ماقاله لى عبد الحكيم عامر .. وهذه العبارة نفسها سجلها محمد نجيب فى مذكراته التى نشرها فى مجلة «الحوادث» اللبنانية مستدلا بها على قدم علاقته بالثورة . أما متى قال عبد الحكيم عامر عبارته هذه لصانع الثورة ، فلذلك قصة ترجع بنا الى سنة ١٩٤٨ حيث كانت القوات المصرية تقاتل ، للمرة الأولى ، على أرض

فلسطين .. وحيث كانت فكرة (الثورة) ــ تحت ظروف ومؤثرات كثيرة وخطيرة ــ تختمر أكثر فأكثر . و يوما بعد يوم .. فى رأس جمال عبدالناصر . وكانت البداية عنده هى تكو ين خلايا من « الضباط الأحرار» الذين يتألمون الم ه ، و يشاركونه أمله فى الخلاص من فساد رهيب .. بدأ ، أولا ، من عند الرأس . أعنى من عند (الملك) ، ثم أخذ ينتشر على نحو سرطانى اجتاح القيادات العسكر ية ، والقيادات السياسية ، والشارع السياسى كله .

وهكذا ولدت فكرة « الضباط الأحرار» فى ساحة الدم .. بين أز يز الرصاص ، ودوى المدافع !!

غير أن «جمال عبدالناصر» الذى كان معروفا بين خاصة أصدقائه بأنه يحب أن يأسو جراح نفسه بالاستماع الى موسيقى « شهر زاد » لريمسكى كورساكوف .. لم يكن « رومانسيا » قط ، وانما كان واقعيا .. والى ابعد الحدود . ولأنه كان واقعيا .. فقد أدرك ، ومنذ البداية ، أنه لايستطيع ــ ولما تتجاوز رتبته العسكر ية ، حينذاك ، رتبة الصاغ (الرائد الآن) .. وأيضا لم يتجاوز عمره الثلاثين عاما ــ أن يصبح قائدا لثورة تر يد أن تأخذ وراءها الجيش ، والشعب معا .

* البحث عن قائد

واذن .. كان لابد من البحث عن قائد .. ولكن ــ أى قائد ؟

كانت لدى عبدالناصر مواصفات خاصة يتحتم توافرها جميعا فى القائد المطلوب .. وهذه المواصفات هى :

* أن يكون من ذوى الرتب العسكر ية الكبيرة .

* أن يكون مشهودا له بالنزاهة .. و بالوطنية ... و بالشجاعة فى مواجهة الخطر.
* أن تكون له فى صفوف الجيش شعبية تمكنه من قيادة الجيش نحو الهدف المحدد .
* أن يكون مشاركا « للضباط الأحرار» فى آلامهم ، وفى جراح نفوسهم .

وكان صعبا للغاية أن تتوفر كل هذه المواصفات التى رأى «عبدالناصر» حتمية توافرها فى الرجل الذى سوف يقود « ثورة الجيش » لكثيرين من ذوى الرتب العسكرية الكبيرة . لكن عبدالناصر لم يكن فى عجلة من أمره .. ومن هنا ، فقد جعل مسألة اختيار «القائد» هذه مطروحة للبحث .. ومضى فى طريقه يدعم تشكيل « الضباط الأحرار» .. يزيده عددا ، و يزيده قوة ، و يؤجج فعاليته .. بحيث يكون له فى الجيش صوت مسموع ، ومرهوب ايضا .

ولقد كان عبدالحكيم عامر هو أول من كاشفه عبدالناصر ، وكشف له عما يدور فى رأسه ، وصدره . و بالتالى ، كان عبدالحكيم هو أول زميل وضع يده فى يد عبدالناصر بعهد على المضى معه : اما الى الحياة .. واما الى الموت .

وكان طبيعيا ــ وقد كاشف عبدالناصر زميله عبدالحكيم عامر بكل ماكان يدور فى رأسه وصدره ــ أن يكاشفه ايضا بالصعاب التى أحسها تعترض طريق الوصول الى «رجل» تتوفر فيه تلك «المواصفات»

المطلوب توافرها فيمن سوف يتولى قيادة الثورة . وأخذ عبدالحكيم عامر على عاتقه مسئولية مشاركة زميله مهمة البحث عن ذلك القائد .

فى ذلك الوقت .. كان عبدالحكيم عامر يعمل كواحد من « أركان حرب » الأميرالاى (العميد الآن) محمد نجيب الذى كان ، بدوره ، يعمل كقائد ثان لجبهة القتال .. و يتولى ، فى ذات الوقت ، قيادة اللواء العاشر الضارب .. وكانت لمحمد نجيب ، فى الميدان ، سمعة عالية ومواقف مجيدة . فقد جرح هناك ثلاث مرات ، ومنح وسام « نجمة فؤاد العسكرية » ــ وهو ارفع وسام عسكرى ــ وتصدى للقيادة الفاشلة للجبهة ممثلة فى قائدها اللواء أحمد على المواوى .. وكعقاب له على هذا التصدى ، ابعد عن الجبهة الى القاهرة .. فلما حل اللواء أحمد فؤاد صادق محل اللواء المواوى ، بعد أن تأكد فشله فى ادارة المعركة ، كان أول شىء فعله القائد الجديد هو المطالبة بعودة محمد نجيب ، فورا ، إلى ميدان القتال ..

ومع عودة محمد نجيب الى الميدان مرة ثانية .. ازدادت العلاقات بينه و بين أركان حربه عبدالحكيم عامر توطدا . ولأن أمر اختيار « الرجل » الذى سوف يقود « ثورة الجيش » عند تفجرها ، كان هما قائما بذاته بالنسبة لعبدالحكيم عامر ، مثلما كان هما قائما بذاته بالنسبة لعبدالناصر ، فقد عمل عبدالحكيم ، من ناحيته ، على الاقتراب أكثر.. وأكثر.. من محمد نجيب الذى كانت سمعته الشخصية .. وسمعته العسكرية .. قد حققتا له فى صفوف الضباط والجنود ، شعبية هائلة . وسرعان ماتبين عبدالحكيم عامر أن محمد نجيب ، بما كان يدور

فى رأسه من أفكار.. ومن آماله وأحلام ، ليس بعيدا ، مطلقا ، عن « الضباط الأحرار» ، ولا عن افكارهم ، ولا عن آمالهم وأحلامهم .

عندئذ .. لم يتردد « عبدالحكيم » فى الذهاب الى «عبدالناصر» ، حيث كان يقاتل فى «عراق المنشية » ، ليقول له : « لقد اكتشفت لك كنزا » . وانطلق « عبدالحكيم » يحدث « عبدالناصر » عن محمد نجيب : عن شجاعته ووطنيته .. وعن أفكاره ، وأحلامه .

واطمأن قلب « عبدالناصر» .

وحينما توقفت الحرب .. وعاد الجميع الى القاهرة ، حرص «عبدالناصر» ، من ناحيته ، على أن يزداد اقترابا من محمد نجيب ، حتى يغوص فى اعماقه بنفسه ، و يستكشفه بنفسه . و بعد كل مرة التقى فيها عبدالناصر مع محمد نجيب كان يخرج من عنده وقد ازداد اقتناعا به .. و بأنه رجل « الدور» الذى ينتظره .

*** واحد .. من ثلاثة**

الا أن « اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار» ــ وهى المجموعة التى تكوّن منها ، فيما بعد ، « مجلس قيادة الثورة » ــ كان لديها مَرشحان آخران لها ، من وجهة نظرها ، أولو ية على محمد نجيب . وكان أول هذين المرشحين .. الفريق عزيز المصرى . وهو ضابط كبير تولى رئاسة هيئة الاركان سنة ١٩٣٩ .. وكانت له بين الصفوف الضباط الشبان ، سمعة وطنية عالية .. كما كان عدد ، غير قليل ، من الضباط الأحرار يعتبرونه « أباهم الروحى» .

أما المرشح الثانى لقيادة الثورة .. فكان اللواء أحمد فؤاد صادق الذى تولى قيادة جبهة القتال فى فلسطين فى اعقاب فشل اللواء المواوى .. وكانت له من « القيادة العليا » فى القاهرة ، مواقف بلغت قمة الجرأة والشجاعة والحفاظ على الكرامة .. وكانت هذه المواقف ، بدورها ، موضع اعجاب الضباط وتقديرهم واحترامهم . هذا فضلا عن مواقف وطنية سابقة له ضد الانجليز فى اوائل الأربعينات ، عاقبوه عليها باستبعاده من الجيش ثم باعتقاله فى معتقل « المنيا » .

وعندما كاشف اعضاء اللجنة التأسيسية الفريق عزيز المصرى بما ينتوون عمله ، بارك خطتهم .. لكنه اعتذر لهم ، بتقدم عمره ، عن القيام بقيادة الثورة . عندئذ ، تحولت اللجنة التأسيسية الى المرشح الثانى .. اللواء فؤاد صادق . وكان الصاغ صلاح سالم هو رسول اللجنة اليه .

قَبِلَ فؤاد صادق ــ وكان بطبيعته صريحا ، وحاسما ، وباترا كالسيف ــ قَبِلَ بالأمر من حيث المبدأ .. لكنه تحفظ على قبوله بالأمر ، بأن قال لصلاح سالم : « ان قيامكم بتشكيل خلايا الضباط الأحرار .. واعدادكم للثورة .. أمر أضعه فوق رأسى . لكننى أحب أن أصارحكم ، من الآن ، بأننى ولدت أقود ولا أقاد . وسوف اتعامل معكم بوصفكم « أركانات حرب » لى .. أنفذ معكم مااقتنع به من ارائكم ولا انفذ مالا اقتنع به ، ومن يعصنى منكم سوف اضعه فى السجن .

صعق صلاح سالم .. وأجاب على كلام فؤاد صادق بقوله :

ــ أتهددنا ياباشا .. ؟

فأجاب فؤاد صادق :

ــ وهل أنتم منتوون أن تعصونى ؟ اذا كنتم تنوون ذلك ، فالبفعل سوف أضعكم فى السجن ..

هذا الحديث رواه لى اللواء فؤاد صادق بنفسه ليلة حدوثه .. اذ كنت ، بالصدفة المحضة ، متوجها الى زيارته .. فقابلت صلاح سالم خارجا من عنده ، وقد تملكه غضب شديد جعله يقدم على تحيتى بطريقة لم أتعودها منه . وكان طبيعيا أن أسأل اللواء فؤاد صادق عن الأسباب التى تختفى وراء تلك الصورة التى رأيت عليها صلاح سالم .. فروى لى ذلك الحديث الذى اثبته ، يومها ، فى مذكراتى الخاصة .

عندئذ .. استقر رأى اعضاء اللجنة التأسيسية ــ وعن اقتناع كامل ــ على اللواء محمد نجيب ليتولى قيادة الثورة ، وليحمل عنها عبء مواجهة كل القوى المضادة لها : الملك .. والأحزاب .. والانجليز.

وقد ترتب على ذلك الاستقرار فى الرأى .. أن أخذت اجتماعات عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع محمد نجيب تتقارب .. وتتعدد .. وتزداد ، فى كل مرة ، صراحة و وضوحا . . حتى اذا جاء يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٥١ ــ قرر « الضباط الأحرار» أن يقوموا بأول اختبار لقوتهم فى مواجهة الملك . فانتهزوا فرصة انتخابات مجلس ادارة نادى الضباط التى كانت ستجرى فى ذلك التاريخ .. وقرروا التقدم الى هذه الانتخابات بقائمة على رأسها : اللواء محمد نجيب ومعه البكباشى زكريا محيى الدين وقائد الأسراب حسن ابراهيم .. وآخرون من الصف الثانى فى تشكيل « الضباط الاحرار» . وكان على هذه القائمة من مرشحى « الضباط الأحرار» أن تدخل معركة الانتخابات متحدية قائمة مرشحى الملك .

وجاءت نتيجة هذه الانتخابات مذهلة للجهتين معا .. نجح مرشحوا الضباط الأحرار جميعا . وسقط مرشحوا الملك جميعا . وحققت « الثورة » التى كانت ـــ حتى ذلك الوقت ـــ ماتزال مختبئة تحت الأرض ، انتصارا رائعا فى أول اختبار لقوتها فى مواجهة قوة الملك .

كان ذلك شيئا خطيرا ، حمل « الضباط الأحرار » ـــ وعلى رأسهم عبد الناصر ـــ على الدخول مع الملك فى سباق رهيب هدفه « أن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم » بعد أن ظهروا على مسرح الأحداث ـــ ولو بصورة نسبية ـــ فى تلك المعركة التى كسبوها من مرشحى الملك .

*** صدام حتمى ..**

من ذلك كله .. يتضح لك أنه ليس صحيحا ـــ مطلقا ـــ مازعمه الزاعمون من أن محمد نجيب لم يكن يدرى شيئا عن الثورة الا قبل ساعتين اثنتين من قيامها .. كما يتضح لك أيضا أنه ليس صحيحا ـــ مطلقا ـــ مازعمه آخرون من أن الثورة كانت ثورة محمد نجيب وسرقها منه عبد الناصر .

ان الثورة ـــ باليقين ـــ هى ثورة عبد الناصر .. هو مدبرها ، ومهندسها والمخطط الأول ـــ والأكبر ـــ لكل خطوة من خطاها . ولكن دور محمد نجيب فى هذه الثورة ، سيظل دورا خطيرا ، وفعالا ، ومؤثرا .. يشهد له بالشجاعة ، و بالوطنية ، و بالجرأة . ولئن كان الصدام قد وقع ، فيما بعد ، بين أعضاء مجلس القيادة من ناحية .. و بين محمد نجيب من

ناحية أخرى ، فإن ذلك كان أمرا حتميا .. حتمته اعتبارات موضوعية كثيرة.. من هذه الاعتبارات ــ ولعله أهمها ــ أن فارق السن بين محمد نجيب و بين أكبر اعضاء مجلس القيادة سنا ، لم يكن يقل عن عشر ين سنة . وهذا يعنى أن مجلس القيادة ، بأكمله ، كان من جيل .. بينما كان «نجيب» ، وحده ، من جيل آخر .. جيل مختلف تماما فى أسلوب التفكير، وفى أسلوب التنفيذ، وفى أسلوب اتخاذ المواقف .

ومن هذه الاعتبارات ايضا .. أن نجيب كان يدلف ، بعمره ، الى ذروة الكهولة .. بهدوئها ، وتر يثها . بينما كان زملاؤه اعضاء مجلس القيادة يدلفون ، باعمارهم ، الى ذروة الشباب .. بحماسته ، وثورته ، واندفاعه . كان هو فى الرابعة والخمسين .. بينما كان أكبرهم سنا فى الرابعة والثلاثين ، و بينهم من كان أصغر. كانوا هم « ثور يين » من قمة الرأس حتى أخمص القدم . بينما كان هو« اصلاحيا » أكثر منه «ثور يا» . فعلى سبيل المثال : كان محمد نجيب يفضل ، بالنسبة للاصلاح الزراعى ــ وهو ما أفضى الى به فى جلسة خاصة ــ فرض ضرائب تصاعدية على ملاك الأراضى ــ وكان هذا هو نفس رأى على ماهر باشا الذى رأس أول حكومات الثورة ــ بينما كانت مجموعة الثوار الشبان تفضل (تحديد الملكية الزراعية) . اذ كانت هذه ــ من وجهة نظرهم ــ (ثورة) تجتث (دولة الاقطاع) من جذورها . أما « الضرائب التصاعدية» فهما يكن من أمر حجمها ، فانها لن تخرج عن كونها مجرد اجراء اصلاحى تستطيع أية حكومة ــ حتى لو كانت رجعية ــ أن تفعله .

وانه لصحيح ــ تاريخيا ــ أن « قانون الاصلاح الزراعى » ــ بصورته التى وضعها مجلس قيادة الثورة ــ اعلنته « حكومة محمد نجيب » التى تولت الحكم بعد سقوط « حكومة على ماهر » التى كان عدم موافقة رئيسها على هذا القانون ، واحدا من أهم أسباب سقوطها . الا أن هذا لا ينفى أن محمد نجيب كان له رأى شخصى « غير معلن » ، مختلف تماما عن مضمون القانون الذى اعلنته حكومته .

وربما يكون الصدام بين « قائد الثورة » و بين « صانعى الثورة » قد تفجر بأسرع مما كان أحد يتوقع .. لكن ذلك لن يغير من الحقيقة شيئا ... والحقيقة هنا ــ وفى ضوء تلك الاعتبارات الموضوعية التى اسلفتها ــ أن ذلك الصدام .. كان « أمرا محتوما » .

ولعل طبيعة محمد نجيب كإنسان أن تكون مسئولة ، بالدرجة الأولى ، عن تلك السرعة التى تفجر بها الصدام بينه و بين زملائه اعضاء مجلس الثورة . فمن ابرز نقاط الضعف التى عرفتها ــ كصديق ــ فى شخصية محمد نجيب ، عدم قدرته على احتمال « مواجهه العامة » . فكان كلما وقع بينه و بين زملائه الشبان خلاف على أمر ما ، افضى بتفاصيل هذا الخلاف الى من يؤتمن ، ومن لا يؤتمن .. لمن يقدرعلى كتم السر ، ومن لا يقدر!! وكانت هذه « الأسرار» تعود فترتد ــ ومزاد عليها ــ الى اعضاء مجلس الثورة الذين كان أكثرهم لايتصور أن الرجل يفعل ذلك نتيجة عدم قدرته على احتمال « المواجع » .. وانما كانوا يتصورون أنه يتعمد افشاء هذه التفاصيل بقصد إثارة الناس ضدهم ومن

هنا ، تزايدت التراكمات واتسعت الهوة .. وأصبح كل شيء معلقا على شفا الهاو ية .

ان المتاجر ين بمحمد نجيب ضد مجلس الثورة ، يشددون على أن الخلاف بينه و بين بقية اعضاء المجلس ــ باستثناء خالد محيى الدين ــ قد وقع فى فبراير سنة ١٩٥٤ . بسبب قضية الديمقراطية أو اللاديمقراطية . ولست أنفى أن هذا الخلاف وقع فعلا بين الطرفين . وربما كان هو « القشة التى قصمت ظهر البعير » . لكن الحقيقة الثابتة ، والتى يعلمها ــ عن يقين ــ كل من اقترب ، من « كواليس » مجلس الثورة ، فى تلك الفترة الفوارة من تاريخنا ، هى أن الخلاف بين محمد نجيب من ناحية ، و بين مجلس الثورة من ناحية أخرى .. كان قد اطل برأسه بين الطرفين فى وقت مبكر جدا على ذلك التار يخ . وكان هذا الخلاف ــ فى صورته الهامة والحادة أيضا ــ نتاجا طبيعيا لذلك الاختلاف الشديد بين الفكر ين ، والاسلو بين ، والجيلين . كما أنه ــ فى صورة أخرى من صوره ــ كان صراعا حقيقيا على السلطة بين الذين يؤمنون بأن الثورة ثورتهم ، وأنهم انما جاءوا بالرجل ليلعب على مسرحها « دورا محددا .. ومحدودا » ، و بين نفس الرجل الذى بدأ يرفض ، بعد تلك الشعبية الجارفة التى اكتسبها لنفسه ، وللثورة ذاتها ، بطيبته و بساطته وتلقائيته ــ أن يكون له على « مسرح الثورة » دور محدد أو محدود .

وكبرهان قاطع على أن الخلاف بين الطرفين قد وقع فى وقت مبكر جدا عما عرف بأنه (أزمة مارس سنة ١٩٥٤) ، أسوق لك ــ

و بالحرف ــ هذه السطور من مذكراتى الخاصة عن يوم الاربعاء التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٣ ــ أى بعد قيام الثورة بعام واحد فقط .. وستة أيام :ــ

*** « كنت على موعد مع الصاغ صلاح سالم أن أقابله فى الساعة الثامنة من صباح اليوم فى منزله . وحينما التقيت به فى الموعد المحدد ، قرأت على وجهه علامات الارهاق والتعب . فقلت له :**

ــ يبدو أن رحلة الاسكندرية قد انهكتك ؟ (ملحوظة : كان صلاح سالم قد عاد من الاسكندرية بعد أن حضر الاحتفالات الشعبية والرسمية بالذكرى الأولى ليوم ٢٦ يوليو.. يوم تنازل فاروق عن عرشه) .

*** فقال :**

ــ أبدا والله .. أنا المجهود الجسمانى لا يتعبنى ابدا ، وانما الذى يهدنى حقيقة هو التعب النفسى .

فقلت مستفسرا :

ــ خير ان شاء الله ؟

فقال بعصبية ظاهرة :

ــ محمد نجيب ياسيدى .. محمد نجيب ...

قلت :

ــ ماله ؟

قال :

ـــ المتاعب اللى بيعملها لنا كل يوم والتانى ..

قلت :

ـــ حصل ايه جديد ؟

فقال صلاح :

ـــ اللى حواليه حايودونا فى داهية .. تصور، محتضن لى واحد اسمه «مطر» ، و بينفخ فيه وحايخليه يركب على أنفاسنا .

قلت :

ـــ أنا لم أسمع عن «مطر» هذا من قبل .

قال صلاح :

ـــ واحد ياسيدى كان معاه فى السودان ، والمعروف أنهم اصحاب جدا . وقد صمم نجيب على أن يعيّنه ملحقا صحفيا بدرجة سكرتير أول ، مع أنه لايحمل غير الابتدائية .

قلت :

ـــ لعل الرئيس يعرف أن له تجارب تعلو على الشهادات ، يمكن الافادة منها .

قال صلاح :

ـــ ولا تجارب ولا نيلة . ولو كان الأمر مقصورا على هذا لهان ، ولكن «مطر» هذا لا يكاد يكف لحظة عن استغلال اسم محمد نجيب . انه ينتهز كل فرصة .. وفى كل مجال .. ليقول : محمّد نجيّب قال لى .. وأنا قلت لمحمد نجيب .. وهكذا مما جعل أمره لا يحتمل . وقد حدث خلال

الاحتفال بعيد التحرير ماجعلنا ــ أو أنا على الأقل ــ أحس بأن يجب الخلاص من «مطر» هذا بأى وسيلة .

قلت :

ــ وماذا حدث فى اعياد التحرير؟

قال صلاح :

ــ اسمع ياسيدى .. كنا قد اتفقنا على دعوة ممثلى الصحف الأجنبية الى مصر ليشهدوا احتفال الشعب بأعياد التحرير، وجعلنا لهذه الدعوة قاعدة التزمها الجميع الا «سى مطر» ، فقد دعا صحفيا من الأرجنتين ومعه زوجته لحضور هذه الأعياد ، متجاوزا بذلك القاعدة التى التزمناها فى دعوتنا . ودعوة صحفى وزوجته ليست مصيبة فى حد ذاتها ، ولكن المصيبة هى : ماذا يكون موقفنا لو حذا كل صحفى حذو «سى مطر» ، ودعا نفرا أو نفرين زيادة عن العدد المقرر؟ اللى يحصل اننا لازم نفتح اعتماد مالى جديد أد اللى فتحناه ، ويمكن أكثر شوية .

واستمر صلاح قائلا : ومش بس كده .. تصور أن «مطر» جانى فى الحفلة اللى عملناها فى الاسكندرية لتكريم الصحفيين الأجانب ، وهمس فى أذنى قائلا : الجماعة دول مايقدروش ياكلوا من غير خمرة. فقلت له وقد تملكتنى الثورة : انشاالله عنهم ماأكلوا .. امشى .. امشى بعيد عنى .

ومشى «مطر» .. وذهب الى محمد نجيب فشكا له منى ، وبعد شوية نادى لى محمد نجيب وقال لى :

ــ علشان خاطرى ياصلاح خللى بالك من الجماعة بتوع الارجنتين .

فقلت له : دول عاوزين يشربوا ، وليس فى برنامج الحفل تقديم شراب .

فقال : دول جماعة أجانب ، و يصح ــ ما داموا ضيوفنا ــ أن لانحرمهم من عادة درجوا عليها فى حياتهم . فقلت له :

ــ حاضر. وأمرت بتقديم شراب للصحفيين الأرجنتينيين . علشان خاطر «سى مطر» .

وأكمل صلاح سالم كلامه قائلا : غير كده .. كنت اتحدث الى الصحفيين الأجانب عن جرائم الانجليز فى حق سكان جنوب السودان ، فقلت فى حديثى اليهم أن الانجليز اهدروا آدمية هؤلاء الناس اهدارا كاملا . فهم يعيشون، فى ظلهم ، عراة حتى الآن لا يكادون يسترون عوراتهم . ثم هم لا دين لهم، ولايعرفون عن المدنية شيئا ، ولا تعرف عنهم المدنية شيئا .. وكل هذا بفعل الانجليز ومجهودهم الاستعمارى الهدام . وبينما أنا أقول هذا الكلام ، كان محمد نجيب « يزغدنى » فى رجلى من تحت « الترابيزة » مرة ، واثنين ، وثلا ثة . حتى اضطررت لأن أتوقف عن كلامى لاعرف ماذا يريد منى ، وملت عليه أساله :

ــ افندم ؟
ــ فقال :

ــ قل .. ان سكان جنوب السودان هم الذين يقررون هذه الحقائق ، ولا نقولها نحن من عندياتنا .

وقال صلاح سالم أنه ثار عندما سمع من محمد نجيب هذا القول ، لكنه مع ذلك اضطر لأن يقوله على مضض .. بعد أن كان الجو قد تكهرب ، ولحظ الصحفيون الأجانب كل شىء .

وأضاف صلاح سالم : أنه اعلن انتهاء المؤتمر الصحفى بعد ذلك مباشرة . اذ كانت حالته النفسية قد صارت غاية فى السوء .

وبعد لحظة صمت ، مضى صلاح سالم يعقب على هذا الذى حدث قائلا : أن محمد نجيب يريد أن يحتفظ برأى القائلين عنه أنه «رجل معقول» .. لقد قال لنا «محمد على» رئيس وزراء الباكستان هذا الكلام فى سفارة لبنان — على مسمع من السفير نديم دمشقية — قال : «ان كل الجهات ترى أن محمد نجيب (رجل معقول) .. وليس من الصعب التفاهم معه» .

وبينما نحن — صلاح سالم وأنا — فى هذا الحديث ، دخل علينا زميله البكباشى مصطفى لطفى الذى صار سفيرا لمصر فى اليونان فيما بعد ، فحوّل صلاح مجرى الكلام فى اتجاه آخر . ولم نعد الى هذا الموضوع مرة أخرى حتى غادرت منزله .

....

....

واننى لأستطيع القول ، وعلى وجه اليقين ، ان هذا الخلاف الذى وقع بين نجيب وصلاح سالم ، لم يكن هو أول خلاف من نوعه يقع بين «صناع الثورة» وبين «قائد الثورة» . فلقد تكاثرت هذه الخلافات وتعددت ، وراحت تأخذ ، فى كل يوم ، صورا وأشكالا جديدة .. لكننى ، مهما نسيت من صور وأشكال هذه الخلافات ، فلن أنسى جلسة

لى مع « عبد الناصر » فى بيته ، كانت مشحونة بشكواه من المتاعب التى قال انه ــ أى محمد نجيب ــ يتعمد زرعها فى طريق الثورة . ففى هذه الجلسة ، افضى الىّ « عبد الناصر » بأمر خطير. بل لعل هذا الأمر كان أخطر ما افضى الىّ به على مدى السنين التى عرفته فيها ، وتوثقت خلالها علاقتى به . فلقد قال لى ، وهو يتابع شكواه من المتاعب التى شدد على أن « نجيب » يصنعها لهم :

ــ ولك أن تتصور حجم المتاعب التى يسببها لنا « نجيب » عندما تعرف أن (فلان) ــ وذكر عبد الناصر اسمه . وهو أحد اعضاء مجلس الثورة ــ اقترح علينا أن يركب مع « نجيب » فى سيارة واحدة ، ثم يقوم عضو آخر منا باطلاق النار عليهما معا . وبذلك ينتفى الشك فى أن مجلس الثورة هو الذى اغتال « نجيب » .. لكننى رفضت هذا الاقتراح بشدة ، وقلت لصاحبه : الظاهر يا (فلان) انك اتجننت !

وما ان سمعت هذا الكلام من « عبد الناصر » ، حتى دارت رأسى .. صحيح اننى عرفته بارعا فى وضع عقله أمام عواطفه ، ولكن .. هل يمكن أن يكون هذا الكلام (حقيقيا) .. أم أنه مجرد (بالون اختبار) القى به أمامى لكى يتأكد ، من خلاله ، ماإذا كنت أنقل أو لا أنقل الى « محمد نجيب » شيئا مما يقوله عنه زملاؤه فى مجلس الثورة ، أو يدبرونه له . وبخاصة اذا وصل الأمر الى هذه الدرجة من الخطورة ؟

فلقد كان معروفا عن « محمد نجيب » أنه كان من الصعب عليه ، ان لم يكن من المستحيل ، أن يكتم عن زملائه شيئا كهذا .. فيما لو

عرفه ، أو سمع به . ولو حدث أننى أفضيت اليه بمثل هذا الأمر ، لراح الى زملائه — مع الفجر — وقال لهم : بلغنى أنكم تنتوون أن تفعلوا بى كذا .. وكذا !! فهل كان هذا هو المقصود من وراء ذلك السر الخطير الذى أفضى به « عبد الناصر » الىّ .. أم أن الأمر كان (حقيقة) ضاق عنها صدره الذى كان ، بطبيعته ، بئرا عميقة الغور لأخطر الأسرار ؟ !

لكننى ، على كل حال ، كنت قد الزمت نفسى — ومنذ الساعات الأولى للثورة — بأن أسمع من الطرفين .. وأنسى .

وعلى ذلك ، قررت — فيما بينى و بين نفسى — الا أتخلى عن منهاجى الذى التزمته فى علاقتى بكلا الطرفين اللذين كنت أحمل لهما — معا — اعمق الحب .. واقدر لكل منهما دوره الخطير فى ميلاد ثورة يوليو . وكنت ادعو الله ، ليل نهار ، أن يجنبهما أسباب الصدام الذى لمحته — مبكرا جدا — يطل بوجهه المرعب عليهما .. ثم راح ، مع الأيام ، يتوسط المائدة التى كانا يجلسان عليها .. و يتحاوران حولها .

وقلت لنفسى : سواء كان هذا الذى قاله لى عبد الناصر (حقيقة) .. أم أنه كان مجرد (بالون اختبار) ، فلن يغنى حذر عن قدر .. اذا ما كان مقدرا لمحمد نجيب أن يموت بهذه الطر يقة ، أو بطر يقة غيرها .

غير أننى كنت أكثر ميلا الى الاعتقاد بأن الأمر لايعدو أن يكون (بالون اختبار) قصد به « عبد الناصر » أن يعرف — وعلى وجه التحديد — أين أنا منهم .. وأين أنا من « محمد نجيب » .

و بقيت على هذا الاعتقاد عشر ين سنة كاملة : من سنة ١٩٥٣ ، حين افضى الى «عبد الناصر» بذلك السر الخطير . والى سنة ١٩٧٤ ،

حين ظهر كتاب الصديق أحمد حمروش (قصة ثورة ٢٣ يوليو ـ الجزء الأول) ووقعت عينى فى صفحة ٣٢٢ من ذلك الكتاب على اشارة الى (أن أحد اعضاء مجلس الشورة تقدم باقتراح لاغتيال محمد نجيب) . ولكن حمروش لم يذكر شيئا من تفاصيل ذلك الاقتراح الذى كان عبد الناصر قد افضى بها الىّ .

عندئذ فقط .. تأكدت من أن الأمر كان (حقيقة) ولم يكن ـ كما ظللت اعتقد ، ولسنين طويلة ـ مجرد (بالون اختبار) .

ومن سخريات القدر فى هذه القصة ، أن محمد نجيب كثيرا ما كان يحدثنى عن ذلك (البطل) الذي تقدم لزملائه اعضاء مجلس الثورة باقتراح اغتياله . وفى كل مرة حدثنى فيها « نجيب » عنه . كان يقول : « انه أحب أعضاء مجلس الثورة الى قلبى » . !!

وهكذا ـ كما يقولون ـ « من مأمنه يؤتى الحذر » !!

....

....

وكان أمرا محتوما ، بعد ذلك كله ، أن تنتهى الأمور بالنسبة لمحمد نجيب الى ما إنتهت اليه . لكن النهاية كانت جد مؤسفة ، وجد أليمة . فلقد اسقط الرجل من مكانه كرئيس للجمهورية ولمجلس قيادة الثورة .. وارسل الى قصر (السيدة زينب الوكيل) ، بضاحية (المرج) ، بعد أن كان قد تحول الى اطلال ، ليقضى به عشرين سنة من عمره !!

ولقد قاسى محمد نجيب بعد أن سقط .. أو أسقط من مكانه ـ كأول رئيس لمصر الجمهورية ـ قاسى الأهوال على مدى هذه السنوات

العشر ين . اذ فقد خلالها كل عافيته ، وكل قدراته الذهنية والجسمية ، وفوقها زوجته واثنين من ابنائه .. مات احدهما غر يبا عن دياره .. وحين سمح لجثمانه بالعودة الى وطنه ، لم يسمح لأبيه «البطل العجوز» بتشييع جنازته !!

لقد كانت كل جريمة «محمد نجيب» فى حق ثورة ٢٣ يوليو التى اعطاها ، ومنذ اللحظة الأولى لقيامها ، وجهها الطيب .. والسمح ... والمطمئن لكل الناس ، ولكل الأطراف والهيئات التى كانت توجس خيفة ، وترتعد رعبا من انطلاق الثورة من داخل القوات المسلحة ــ أقول كانت كل جريمة محمد نجيب فى حق ثورة يوليو، أنه اختلف مع «صناعها» على أشياء كثيرة .. وهو اختلاف كان واردا منذ اللحظة الأولى للثورة ، وقد فرضه فرضا ــ كما قد اسلفت ــ اختلاف العقليتين ، والفكر ين ، والجيلين .

غير أن الذى لاشك فيه ــ حقا .. وانصافا .. وعدلا ــ أن محمد نجيب قد احتمل ــ وحده ــ من مسئوليات قيام الثورة ، و بكل الشجاعة والبطولة والايمان المطلق بمصر وبحقها فى حياة حرة وعز يزة وكريمة ، مالم يحتمله كل رفاقه الشبان مجتمعين .

ولست أقول هذا القول من منطلق صداقة عميقة وحميمة ربطتنى بالرجل . كما أننى لا أقوله من منطلق انبهار بدوره التاريخى والمؤثر فى قيام الثورة . وانما اقوله من منطلق موضوعى بحت . فلو أن انتكاسة قد أحاطت بالثورة ، فى مراحلها الأولى ، لكانت رصاصات الاعدام قد اخترقت صدر محمد نجيب ــ وحده ــ دون غيره من رفاقه الشبان .

لماذا ... ؟

لأنـه كـان (الـوحيد) بين هؤلاء الرفاق الذى يحمل رتبة (لواء) ..
وأيـضـا لأنـه كـان (الـوحـيد) بينهم الذى يبلغ من العمر اربعة وخمسين
عـامـا ، بـينما كـان أكبر الـرفـاق الـشـبان سنا يبلغ من العمر، كما سبق
وقـلـت ، اربعـا وثـلاثين سـنـة .. و بـعـضـهـم كـان مـايزال فى الثانية
والثلاثين .

ومـن هنا ، كان من السهل جدا على أولئك الرفاق ــ اذا ماأدلهمت
الأمـور .. واحـتـاج الأمر الى دفاع عن النفس ــ أن يقولوا أن هذا الرجل
الـكـبير سـنـا ، والـكـبير رتبة ، قد غرر بهم .. وساقهم الى دروب لم يكن
واردا بـخـواطرهم أن يسلكوها . و بذلك يأخذون طريقهم الى السجون ،
ربمـا مدى الحياة ، ولكن . ليس الى الاعدام رميا بالرصاص كما هو الأمر
فى حالة الرجل الكبير رتبة .. والكبير سنا .

أما هو.. فماذا كان بوسعه أن يقول دفاعا عن نفسه ؟

هـل كـان ممكنا أن يقول أن رفاقه الشبان ــ وهم الأصغر منه عمراً
بـعـشرين سنة كاملة .. والأصغر منه رتبة باربع رتب عسكرية بالنسبة
لـبـعـضـهـم .. و بـخـمس رتب بالنسبة لبعضهم الآخر ــ قد استغفلوه ،
وغـرروا بـه ، وسـاقـوه الى مـالم يـكـن يـريد .. أو الى مالم يكن يحب أن
يفعل ؟ .

وهـل كـان ممـكنا لمثل هذا القول أن يتقبله أحد ، أو أن يستمع اليه
أحد ؟

ذلك كله ــ فضلا عن أن ماضى محمد نجيب كمحارب باسل وجندى عظيم ــ كان ينبغى أن يحسب فى رصيد الرجل ، عندما قرر رفاقه الشبان اقصاءه عن مكانه فى قيادة ثورة يوليو.

صحيح أن الرجل كان قد اكتسب شعبية جارفة لدى الجماهير جعلته يشكل ــ بصورة أو بأخرى ــ خطرا محققا على « ثوار يوليو» . وصحيح أيضا أنه كان من حق هؤلاء الثوار على أنفسهم ، بل ومن واجبهم ، أن يؤمنوا مسارهم ضد أى ر ياح يمكن أن تهب عليهم من ناحية الرجل الذى انطلقت ثورة يوليو ــ أول ما انطلقت ــ حاملة الى كل الناس ، فى كل أرجاء الدنيا ، اسمه .. ورسمه . الا أن هذين الاعتبارين ، على أهميتها وخطرهما ، لم يكن جائزا أن ينهضا كمبرر لأن يتعرض الرجل لكل ذلك الهوان الذى تعرض له . ولست أنسى يوم جاء لنز يارتى فى بيتى ، عقب فك اعتقاله وخروجه من وراء الأسوار ، وراح يروى لى ، والألم يمزقه .. كيف أنه عندما توفيت شقيقته حذف اسمه من نعيها الذى نشرته صحيفة (الأهرام) !! وعندما سمح له بالتوجه الى بيتها ليلقى عليها نظرة أخيرة قبل أن توارى التراب ، أبى ضابط الحراسة المكلف بمتابعته كظله أن يدعه يدخل وحده الى الغرفة التى كان جثمان شقيقته مسجى بها !! ولما قال له محمد نجيب « عيب يا ابنى هذا الذى تفعله » أجابه الضابط : « هذه هى الأوامر يا أفندم .. ولا أملك أن أخالفها » !!

لحظتها .. لم يستطع البطل العجوز أن يقول شيئا ، ولا أن يفعل شيئا ، فقط .. فاضت من عينيه دموع قالت كل شىء ، نيابة عنه .



فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٠ ـ أقامت مجلة (المصور) حفل تكريم لأبطال مصر فى عالم الرياضة حضرها ـ بدعوة من الكاتب ـ اللواء أحمد فؤاد صادق والمرشح الثانى بقيادة ثورة ٢٣ يوليو والذى يرى فى الصورة والى يمينه (الصاغ) صلاح سالم والى يساره (الصاغ)، وقتها، جمال عبدالناصر.. والأميرالاى،

. . . .

. . . .

لقد قاسى محمد نجيب ــ خلال السنوات العشرين التى قضاها وراء أسوار قصر المرج ــ من الأهوال مالم يقاسه واحد ممن تآمروا على ثورة يوليو تآمرا حقيقيا نابعا من حقدهم الأسود على الثورة ، وعلى أهدافها ، وطموحاتها ، فلقد القى به وراء أسوار قصر المرج وهو فى عنفوان رجولته .. ولم يسمح له بالخروج من وراء هذه الأسوار، الا بعد أن كان قد بلغ ذروة شيخوخته .. و بعد أن تأكد لدى الجميع أنه لم يعد قادرا على تهديد أحد ، ولا على اتعاب أحد ، ولا حتى على مجرد الهمس فى أذن أحد . !!

ولم يكن السجن وراء الأسوار الموحشة ، يمثل كل تلك الأهوال البشعة التى تعرض لها « البطل العجوز» ابان محنته هذه. بل كان هناك ماهو أشد هولا من السجن فى ذاته. كان هناك التعذيب المعنوى والنفسى بكل صنوفه والوانه .. فلا جرائد ، ولا كتب ، ولا راديو، ولا انسانا واحدا يقرؤه السلام !! حتى الأثاث الذى كان موجودا ــ أصلا ــ بقصر المرج ، أُستكثر على محمد نجيب أن يتمتع به .. فأخلى القصر منه ، وترك : «البطل العجوز» يعلق ملابسه على حبال مدها بيديه بطول الغرفة التى كان ينام بها .. !! ولم يكن هناك مايمكن أن يؤنس وحشته غير مجموعة من القطط كان يطعمها بيديه ، و ينيمها معه فى نفس فراشه لكى تزود عنه الفئران التى كانت تحيل ليله الى جحيم مستحيل أن يحتمله انسان يحس و يعى !!

وكأنما كان المقصود من وراء ذلك كله أن يموت الرجل غما .. وكمدا !! غير أن « البطل العجوز » الذى لقى من العذاب صنوفا .. بعضها له لسعة النيران ، و بعضها له مرارة الحنظل .. لم يسمح لهذه الصنوف من العذاب أن تقتله . وانما صمد ، وصبر ، وقاوم .. ولم يمت !!

ومهما يكن من حجم الاخطاء التى وقع فيها محمد نجيب بالنسبة لثورة يوليو، فانها ــ و بأى حال من الأحوال ــ لا يمكن أن تصل الى حجم ذلك الخطأ الفادح الذى وقعت فيه ثورة يوليو نفسها عندما رضيت أن تنزل بالرجل الذى قدمها لمصر .. وللعالم كله .. والذى قاد أولى خطواتها على الطريق الوعر والمحفوف بأكبر المخاطر ، كل ذلك العقاب الممعن فى القسوة الذى أنزلته به . ايضا مهما يكن من حجم الأخطاء التى وقع فيها محمد نجيب ، فانها ــ و بأى حال من الأحوال ــ لايمكن أن تصل الى ماوقع فيه (المار يشال بيتان) من خطأ بلغ مرتبة الخيانة العظمى .. حين سلّم ، واستسلم ، وفتح أبواب بار يس أمام جنود (هتلر) ليدخلوها غزاة فاتحين . ومع هذا ، فعندما تم النصر للجنرال ديجول ، قائد فرنسا الحرة ، على الغزاة الفاتحين .. قام بتقديم « بيتان » الى محكمة عسكر ية عليا حاكمته وحكمت عليه بالاعدام . الا أن « ديجول » ــ وكان « عسكر يا » ككل ثوار يوليو ــ رفض أن يصدق على هذا الحكم . لم يطاوعه قلبه أن يصدق على حكم باعدام الرجل الذى كان يعتبر ــ الى ماقبل سقوطه فى حمأة الاستسلام لغزاة بلاده ــ واحدا من اعظم رموز فرنسا العسكر ية ، فاستبدل حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة . وحينما سئل « ديجول » بعد ذلك بسنوات ، فى أحد مؤتمراته الصحفية : أين يوجد المار يشال بيتان ؟



كمال الدين حسين ، وحلمى سلام ، وجمال عبدالناصر.

أجـاب : انـه موجود فى مكان يليق بأمجاده القديمة .. مكان يستطيع أن يرى منه النور .. والشمس .. والخضرة !

بـقـى بـعد ذلك كله ، أن نكرر أنه مهما يكن من أمر ماوقع من محمد نجيـب فى حـق (ثورة يوليو) ، فان ماوقع منها هى فى حقه كان فادحا ، واليما ، ومـؤلما مـعـا . بـل لـعلـى لا أتجـاوز الحق والحقيقة اذا ما وصفت ذلك الـذى وقـع فى حـق الرجل بأنه كان واحدة من « الكبائر » التى وقعت فيهـا « ثـورة يـولـيو» ، والتى لا يستطيع أمرؤ ــ مهما بلغت درجة انتمائه الى هذه الثورة .. أو انحيازه لهاــ أن يدافع عنها ..

ولـيست « الكبيرة » هنا أن الرجل دخل السجن لمدة عشر ين سنة كـامـلـة .. فذلك ، غالبا ، هو قدر الزعماء . وقد سبقه اليه « غاندى » .. و«نهـرو» .. وكـثـيـرون غيرهما .. ولكن « الكبيرة» ــ حقيقةــ هى الطر يقة .. وهو الاسلوب اللذان عومل بهما « البطل العجوز » فى سجنه . وهـى طـر يـقـة .. وأسـلـوب .. خـلـيـا تـمـامـا مـن كل اعتبار « لزمالة الـسـلاح » .. ومـن كـل اعـتـبـار لـزمالة « ساعة الصفر » التى اعطاها الـرجـل هـنـا فى مصر .. وفى كـل مـكـان مـن الـعالم ، ثقلها ، وقيمتها ، وهيبتها ، واحترامها .

لـقد كان محمد نجيب ــ وبحق ــ جنديا باسلا .. وقائدا شجاعا ... و وطنيا مخلصا ونزيها وشر يفا .. ولن يسقط عنه واحدة من هذه الصفات كلها ، أن « لعبة السياسة » ــ وهذا حق ــ لم تكن لعبته .

الفصل الثانى

عبد الناصر : ضيف على الغداء . !

منذ أن رحل عبد الناصر عن دنيانا ، فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، لم يتوقف الجدل حوله : حول شخصه ، وحول عهده ، وحول ماحفل به ذلك العهد من أحداث جسام — سلبا وايجابا — وذلك طبيعى . فلم يكن عبد الناصر ، بأى مقياس ، شخصية عادية دفعت بها المقادير الى قمة الزعامة . وماأكثر مافعلتها المقادير .. فى كل زمان ، وفى كل مكان !! وانما كان عبد الناصر ، وبكل المقاييس ، شخصية هائلة فرضت نفسها فرضا على مجريات الأحداث فى عصرها ، وتركت بصماتها ، ومدت آثارها العميقة والخطيرة .. ليس الى البلد الذى انطلقت منه زعامته فحسب ، وانما الى العالم العربى كله .. وايضا الى كثير من دول العالم الثالث ، ان لم يكن الى كل العالم الثالث .

ومهما يكن من أمر الجدل القائم ، الآن ، أو الذى يمكن أن يقوم ، مستقبلا ، حول شخص عبد الناصر .. وحول عهده .. وحول ماحفل به ذلك العهد من تغيرات جذرية وأحداث جسام — فلسوف يبقى الرجل — بعد أى جدل ، وبرغم كل جدل — شخصية تاريخية هائلة

استطاعت أن تدخل التاريخ من أوسع ابوابه ، وأن تسجل لاسمها .. لاعمالها ومواقفها .. صفحات حافلة فى سجله .

ولسوف يبقى الناس ــ ولاجيال كثيرة قادمة ــ فى اختلاف دائم ، هادىء .. أو هادر ، حول هذه الصفحات الحافلة التى تركها عبدالناصر فى سجل التاريخ : فريق يؤيدها على اطلاقها .. وفريق يرفضها على اطلاقها . وفريق ثالث ، أحسبنى واحدا منه ، يعتصم باحكام العقل ، وبقوانين المنطق .. فلا يرفضها على اطلاقها ، ولا يؤيدها على اطلاقها .. ادراكا منه أنه أنما يواجه بشرا ــ وليس ملاكا ولا نبيا ــ بشرا كان معرضا ، ككل البشر ، للخطأ وللصواب . ولأن هذا البشر ، بالذات ، كان (زعيما حقيقيا) ، بكل الدقة المتمثلة فى كلمة (زعيم) ، فانه كان معرضا ــ وبالضرورة ــ لاخطاء الزعامة وصوابها . وان يكن خطأ الزعماء وصوابهم ، ليس كخطأ وصواب غيرهم من عامة الناس الذين اذا أصابوا فلأنفسهم .. واذا أخطأوا فعليها .

ومامن شك أن عبدالناصر كانت له ــ على مدى الثمانية عشرة عاما التى حكم مصر خلالها ــ انجازاته الكبرى ، ومواقفه العظيمة التى يصعب على أشد الناس كراهة له ، النيل منها . ولكن .. مامن شك ، من ناحية أخرى ، فى أنه كانت له أخطاؤه التى يصعب على أشد الناس اعجابا به .. وحبا له ، الدفاع عنها .

وأى اعتذار لعبدالناصر ، عن أى خطأ وقع فيه ، بأنه كان ــ فى فترة ما من حكمه ــ مجردا من (السلطة) .. أو أنه كان هناك من (يحكمه) . انما هو نيل حقيقى من الرجل الذى كان بكل مقومات

شخصيته ، أقوى من أن يستطيع أحد أن يحكمه .. أو يحوله الى مجرد (واجهة جليلة) .. تملك ولا تحكم .

ولكن العجيب ، حقيقة ، هو أن يقبل بعض الذين يعتزون بعبد الناصر ، قمة .. وقيمة ، بأن يقال عنه أنه كان ، فى فترة ما من حكمه ، مجرد (دمية) يحركها الآخرون .. ولا يقبلوا بأنه ، أولا .. وآخرا ، كان (انسانا) يخطىء و يصيب .. مثلما يصيب أى انسان ويخطىء !!

وليس هذا ، فى رأيى ، وفاءا .. ولا هو اخلاصا .. ولا هو حتى مجرد حماس .. وانما هو نوع مقيت من (التعصب) يعمى البصر ، و يسحق البصيرة .. ويجرد الانسان من اعظم ماوهبه الله له ، وهو: (العقل) .. لكى يفرق به ، وعن طريقه ، بين الغث والثمين .. بين الخبيث والطيب .. بين مايجوز ، فى بعض الظروف ، و بين مالا يجوز مطلقا تحت أية ظروف .

ان خطأ الذين يجردون ، أو يحاولون ، تجريد عبد الناصر من كل موقف عظيم ، ومن كل انجاز عظيم .. مساو تماما ، فى تقديرى ، لخطأ اولئك الذين يحاولون تبرئته من كل خطأ .. وكأنه ــ فى حسبان هؤلاء .. واولئك ، لم يكن انسانا .. و بالتالى ، فانه كان ، فى نظر فريق منهما ، مستحيل أن يخطىء .. بينما كان ، فى نظر الفريق الآخر ، مستحيل أن يصيب !!

....

....

وهذه محاولة — أثق بأنها لا تنقصها الدقة ... ولا الأمانة — لرسم صورة لعبد الناصر .. كما عرفته عن قرب .. ولست أزعم أن هذه الصورة سوف تأتى مشتملة على كل الأضواء والظلال التى يفترض أن تتكون منها صورة تمثل رجلا ضخما كعبد الناصر . يمثل ، بدوره ، عصرا وتاريخا . فذلك تكليف يتجاوز حدود المتاح والممكن ، فى فصل من كتاب . وانما المتاح والممكن هنا هو ان أقول عن الرجل كل ماعندى . كل ماعرفته ، وكل مالمسته — عن قرب — من خصائصه وصفاته .. ثم اترك المجال لكل ذلك الذى عرفته ولمسته ، ليقوم عنى برسم ملامح الصورة التى أحاول أن أقدمها لك . ولقد ينجح ماعرفته عنه .. وأيضا مالمسته فيه ومنه ، فى أن يقدم لك (كل) ملامح هذه الصورة . وقد لا ينجح فى أن يقدم لك الا (جل) هذه الملامح . وحسبى ، فى الحالتين ، جهد المحاولة .

* من هو .. وماذا هو؟

فى الشهور الأولى لثورة ٢٣ يوليو .. و بعد أن أخذ الستار ينزاح شيئا فشيئا عن أسرارها ، وأيضا عن أشخاصها .. و بعد أن عرف ، بين الخاصة على الأقل ، أن عبد الناصر هو صاحب هذه الثورة ، ومنظم جنودها .. وراسم خططها وخطوطها . راح كثير من الأصدقاء ممن عرفوا شيئا عن حقيقة علاقتى به .. و بالثورة نفسها .. يسألوننى عنه : من هو .. وماذا هو؟

وكنت أجيب هؤلاء الأصدقاء باجابة واحدة : « انه رجل ولد ليكون زعيما »، وأحيانا كنت أزيد فأقول لهم : « أن فيه من (الجمل)

كل شيء : فيه منه اسمه .. ورسمه .. وصبره .. وقوة تحمله .. وايضا قدرته المذهلة على الثأر» .

وكان ذلك ، فى يقينى ، تلخيصا أمينا لكل مقومات الرجل .. كما عرفته ، وعاشرته ، قبيل ثلاث سنوات من قيام الثورة . فلقد منحه الله بسطة فى الجسم أضفت عليه كثيرا من الهيبة . ثم جاء ذلك الشيب الذى مشى مبكرا جدا فى فوديه ، فزاده هيبة على هيبته . وكان قليل الضحك قليل الكلام . اقرب الى أن يكون خجولا ـ بطبعه ـ أكثر منه مجترئا أو مقتحما . وكان مستمعا ذا صبر عجيب على الاستماع . بالاضافة الى قدرة جبارة على ضبط النفس .. تحت أقسى الظروف ، وأصعب الأزمات .

وكان واضحا تماما أن عبد الناصر لا يصطنع شيئا من هذا كله . وانما كان ذلك كله جزءا لا يتجزأ من حقيقة تكوينه .. من حقيقة الصورة التى صوره الله عليها .. ولقد كانت هذه الصفات جميعها هى أول مالفتنى منه ، حين عرفته ـ لأول مرة ـ فى صيف ١٩٤٩ . ومن المؤكد أن هذه الصفات جميعها ، كانت وراء اختياره من جانب زملائه وشركائه فى العمر .. وفى الثقافة .. وفى الدفعة .. ليكون رئيسا للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار ، مرتين على التوالى ..

* متى .. وأين .. وكيف ؟

قبل ثورة ٢٣ يوليو .. صفت حروف المطابع فى صحف مصر ، اسم «جمال عبد الناصر» مرتين : المرة الأولى كانت فى سنة ١٩٣٥ ، عندما نشرت صحيفة (الجهاد) اسمه ضمن قائمة المصابين خلال المظاهرات

الوطنية التى قام بها طلاب الجامعات والمدارس احتجاجا على تصريح أدلى به أمام مجلس العموم البريطانى (سير صموئيل هور) ــ وزير الخارجية وقتذاك ــ ونال به من كرامة مصر.. فتفجرت مظاهرات الطلاب شجبا لذلك التصريح، واحتجاجا عليه. وسقط كثير من الطلاب مصابين برصاصات وهراوات رجال البوليس الذين كانوا وقتها، محكومين بالانجليز أنفسهم. وكان «الطالب جمال عبد الناصر» واحدا من هؤلاء المصابين اللذين نشرت الصحف قائمة باسمائهم.

كانت تلك هى المرة الأولى التى صفت فيها مطابع صحف مصر اسم «جمال عبد الناصر». أما المرة الثانية. فكانت فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٠، عندما صفت مطابع مجلة (المصور) اسمه ضمن سطور مقال كتبته لها تحت عنوان: «فلنحن رؤوسنا لجيش مصر اجلالا».. دافعت به عن سمعة جيشنا.. وعن كرامته.. وعددت فيه أسماء الرجال الذين قاموا، فى أول حرب لنا مع اسرائيل فى سنة ١٩٤٨، ببطولات خارقة سوف تظل رمال (أسدود).. و(المجدل).. و(الفالوجا) تتحدث عنها، وتحتفظ بها بين أغلى ذكرياتها.. على الرغم من كل المآسى، ومن كل النكبات. ولقد كان اسم «جمال عبد الناصر» فى طليعة تلك الأسماء التى عددتها فى ذلك المقال، والتى كان من بينها ــ بالصدفة المحضة ــ أسماء عدد آخر من الرجال الذين قاموا بثورة يوليو. أذكر منهم: محمد نجيب.. وصلاح سالم.. وعبد الحكيم عامر.. وكمال الدين حسين.

* بين المرة الأولى... والثانية:

فى المرة الأولى ــ سنة ١٩٣٥ ــ لم أكن أعرف شخص جمال

عبدالناصر. كان كل ما يربطني به مرحلة من العمر واحدة .. ومشاعر وطنية واحدة .... وأيضا آمال وآلام واحدة.

وفي المرة الثانية ــ سنة ١٩٥٠ ــ كنت أعرفه. كنا قد التقينا، وتعارفنا وصرنا صديقين .. أما متى التقينا، وكيف تعارفنا، وكيف صرنا صديقين .. فلذلك كله قصة .. هذه تفاصيلها:

* الزمان: شهر يونيو سنة ١٩٤٩ .

* والمكان: بيتي في منشية البكرى التي تقع على قيد خطوات من كوبرى القبة، حيث كان يقع بيت «عبدالناصر» القديم .. قبل انتقاله الى بيته الحالي في منشية البكرى.

* والمناسبة: دعوة الى الغداء وجهتها الى صديقي الضابط معروف الحضرى، وهو واحد من أصحاب البطولات الخارقة في حرب فلسطين، بمناسبة عودته سالما من تلك الحرب.

جرس الباب يدق في الموعد المضروب بيننا .. وأقوم لأفتح الباب، فاذا بي أفاجأ بأن الضابط الصديق لم يأت وحده، وانما جاء و برفقته شخص آخر لا أعرفه .. فارع الطول .. عريض المنكبين .. حاد النظرات بصورة ملفتة. كان يرتدى قيصا أبيض، رفع أكمامه الى منتصف ساعديه .. و بنطلونا أسود مخططا بأقلام رفيعة بيضاء .. وحذاء بني اللون (حذاء رجال الجيش قبل أن يتبدل الى « اللون الاسود » بعد الوحدة مع سوريا).

وقدر صديقي معروف الحضرى أن حضور هذا الشخص الآخر معه، لابد وأن يكون ــ بالنسبة لي ــ مفاجأة تحتاج منه الى تفسير .. فبادر،

على الفور، بتقديم مرافقه لى : الصاغ جمال عبدالناصر .. صديقى .. كنت عنده قبل أن أجىء اليك ، فلما عرف منى أننى مدعو للغداء عندك ، دعا نفسه ليكون ثالثنا ــ لانه حريص على أن يتعرف عليك .

رحبت بالصديق .. و بصديق الصديق .. وتبادلنا ، قبل الانتقال الى مائدة الغداء ، عبارات المجاملة المعتادة فى مثل هذه المناسبات .

وعندما انتقلنا الى المائدة .. بدأ الحديث بين ثلاثتنا يأخذ شكلا آخر .. شكلا أكثر جدية وأكثر تحديدا . أخذ يتجه نحو (الفساد) الذى كان يضرب بجذوره فى صفوف القيادات العليا للجيش .. وفى صفوف الأحزاب .. وفى صفوف كل القيادات السياسية التى كانت تحكم مصر فى ذلك الحين . وهل هناك من أمل فى الخلاص من ذلك الفساد كله . واذا كان مثل هذا الأمل موجودا ، فمن .. من الذى يستطيع تحقيقه .. من الذى يستطيع أن يعلق الجرس فى رقبة القط .. ؟.

*** سؤال .. من ورائه سؤال !**

كان القادم الجديد .. أقلنا كلاما وأكثرنا استماعا . فقط كان يلقى فى الجلسة بسؤال .. يتبعه بسؤال .. من ورائه سؤال . ثم يبقى ، بعد ذلك ، صامتا يستمع الى الاجابات عن أسئلته : لا يقاطع .. ولا يعارض .. ولا يعقب . كان أشبه بمحاضر يعرف ــ مسبقا ــ اجابات الاسئلة التى يلقيها على من يستمعون اليه .. ولكنه يحرص ، فى نفس الوقت ، على أن يعرف : هل تتفق اجابات الحضور مع الاجابات التى كونها لنفسه ردا على الاسئلة التى يلقيها .

واستلفتني من «عبد الناصر» هذه الظاهرة: ظاهرة التساؤل الكثير.. والاستماع الأكثر.. والكلام الأقل. وامتد بنا الحديث حتى الخامسة بعد الظهر. وعندئذ استأذن «عبد الناصر» فى الانصراف معتذرا بارتباطه بموعد آخر.. واعداً، فى ذات الوقت، بزيارة أخرى.

وعندما صرنا ــ معروف الحضرى.. وأنا ــ وحدنا، بعد أن تركنا عبد الناصر.. سألنى معروف:

ــ ما أنطباعك عن جمال؟

قلت:

ــ أنه شخص يوحى بالاحترام وبالثقة. ولكن... ما رأيك أنت فى صمته الغريب هذا الذى لا يكاد يقطعه الا لكى يسأل سؤالا؟

قال معروف:

ــ هذا هو طبعه. يحب أن يستمع اكثر مما يتكلم. لكنك سوف ترى، عندما تزداد معرفة به، أنه شخص يشتعل وطنية وثورة على الأوضاع التى تعيشها مصر.. بل أنك سوف تكتشف فيه، مع ازدياد معرفتك به، ميزة أخرى غير ميزة (الصمت) التى يتمتع بها: تلك هى قدرته الجبارة على السيطرة على أعصابه، وأخفاء مشاعره.

وتكررت اللقاءات بين «الصاغ جمال عبد الناصر» وبينى. كان يأتى الى بيتى بغير مواعيد مسبقة. فاذا وجدنى، جلسنا نتحدث فيما كان يملأ صدرينا بآمال وآلام واحدة. واذا لم يجدنى، ترك لى ورقة بالموعد الذى سوف يعود فيه. ولم يكن من شأن هذه اللقاءات التى

تقاربت وتعددت بين عبدالناصر و بيني الا تعميق إحساس بصفاته وبحقيقة شخصيته وتكو ينه .

*** صداقة أوثق .. وعمق أبعد**

وخلال السنوات الثلاث السابقة على الثورة : من سنة ١٩٤٩ ــ تاريخ تعارفي بجمال عبدالناصر الى سنة ١٩٥٢ ــ تاريخ قيام ثورة يوليوــ أستطاعت صداقتنا أن تكتسب ثقة أكبر، وعمقا أبعد .. واخذ (التلميح) الى مايجب أن يحدث ، يأخذ شكل (التصريح) بما سوف يحدث . ولكن بلا أى تحديد لموعد ، و بلا أى ذكر لأسماء .. فلم يكن معقول بالنسبة لرجل من طراز عبدالناصر يفكر فى ثورة ، و يدبر لها .. أن يحدد موعدا ، أو أن يذكر اسماء .

وخلال تلك السنوات الثلاث نفسها .. بل وفى نفس الوقت الذى تعرفت فيه على الصاغ جمال عبدالناصر، تعرفت أيضا على (الصاغين) : عبدالحكيم عامر وكمال الدين حسين . عرفنى بهما عبدالناصر. و بعد هؤلاء الثلاثة ، عرفت الصاغ صلاح سالم . ألتقيت به فى الاسكندرية ببيت اللواء أحمد فؤاد صادق . وعدنا معا من الاسكندرية الى القاهرة فى قطار واحد .. وعلى مقعدين متجاورين .. ثم لم نفترق بعد ذلك الى أن مات .

كان صلاح سالم أكثر الجميع ترددا على بيتى .. كما كان أكثر الجميع مصارحة لى بما يحدث .. بل وبما سوف يحدث .. و يرجع ذلك ، فى تقديرى ، الى سببين ، أولها : طبيعته التى كانت صريحة ومندفعة . وثانيها : انه كان أقل زملائه الذين عرفتهم احتمالا لما يحدث . وأكثرهم تعجلا للخلاص منه .

ومن ناحية أخرى .. امتد حبل الصداقة فربط بينى و بين قائد الجناح عبداللطيف البغدادى .. وقائد الأسراب حسن ابراهيم . وقبل هؤلاء جميعا ، كنت قد تعرفت على أنور السادات فى سنة ١٩٤٧ ، من خلال قضبان قفص الاتهام فى محكمة الجنايات . كان هو يجلس داخل القفص متهما بالتحريض على قتل الوزير السابق أمين عثمان رجل الانجليز (رقم واحد) فى مصر ، وكنت أنا أجلس فى مقاعد الصحفيين أتابع تلك القضية الهامة التى استولت على أكبر قدر من اهتمام الجماهير.

وهكذا .. وجدت نفسي ـــ فجأة ـــ مرتبطا بصداقة وثيقة وعميقة ، مع سبعة من أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار. عرفتهم فى ظروف متباينة ، وعن طريق أشخاص متباينين . ولكن جميع القنوات أفضت بهم الىّ ، مثلما أفضت بى اليهم .. فاصبحوا يجيئون الى ، وأذهب اليهم .. أستمع لهم وأسمع منهم .. وأترجم أراءهم ومشاعرهم الى مقالات كانت تظهر ، من سنة ١٩٤٩ وحتى سنة ١٩٥٢ ، على صفحات (المصور) حاملة توقيعى ، فى نفس الوقت الذى كانت هذه المشاعر ، وتلك الأراء ، تظهر فيه فى صفوف الجيش فى صورة (منشورات سرية) تحمل توقيع (لجنة الضباط الأحرار) .

* عودة .. الى عبدالناصر

... وأعود بعد هذا الاستطراد ، الى ((عبدالناصر)) ...

لقد وفرت لى السنوات التى عرفته فيها ـــ قبيل الثورة و بعدها ـــ معرفة عميقة بشخصيته .. و بخصائصه وميزاته .. بطريقته فى التفكير

وفى التدبير.. وأيضا بأسلوبه المتميز فى التعامل مع الأزمات والعواصف .

ولقد ظهرت تلك الصفات التى كنت أراها فيه من (الجَمل) فى مواقف ، وأزمات كثيرة مرت به ومر بها . ظهرت صفة (الصبر) ، مثلا ، فى صبره الطويل على أمريكا . صبر عليها وهى تعده بمده بالسلاح ولا تفى . وصبر عليها وهى تعده وتروغ . وصبر عليها وهى تعده ثم تنفذ ما وعدته به ، ولكن .. لاسرائيل !!

عندئذ .. ظهرت الصفة الأخرى من مجموعة تلك الصفات التى كانت له من « الجمل » .. ظهرت قدرته المذهلة على (الثأر) . فاذا هو يفاجىء أمريكا التى وعدته وراوغت .. ووعدته ولم توف بوعدها .. بصفقة الأسلحة التشيكية التى كانت ــ تاريخياً ــ نقطة التحول الحقيقى فى علاقة أمريكا بمصر الثورة . ثم ظهرت تلكما الصفتان مرة ثانية ــ ومع أمريكا أيضا ــ عندما طلب منها تمويل مشروع السد العالى . لقد وعدت أمريكا بدراسة المشروع . ثم راحت تؤجل وتسوف وتراوغ .. وهو صابر على تأجيلها وتسويفها ومراوغتها . ثم عادت أمريكا ــ بعد كل ذلك التأجيل والتسويف والمراوغة ــ فخطت خطوة فى اتجاه عبد الناصر .. فوعدت ، بعد ما قالت انها درست المشروع ، بتمويله . ثم عادت ــ وعلى غير توقع من أحد ــ فسحبت وعدها .. بزعم « أن أقتصاد مصر لا يحتمل أعباء بناء مشروع هائل كهذا المشروع » .

عندئذ .. تخلى (الجمل) عن صبره ، وعمد الى (الثأر) . فوجه الى أمريكا .. والى الغرب كله .. ضربة قاصمة . أمم قناة السويس !!

وهكذا جاء ثأره فى حجم صبره . كان صبره عريضا كصبر الجمل .. وكثأر الجمل ، تماما ، جاء ثأره !!! صحيح أنه كان قد أعد لهذا الامر عدته من قبل . ولكنه عرف كيف يختار « الوقت المناسب » ليضرب ضربته . وكان اختيار « الوقت المناسب » واحدة من أعظم مزاياه .

هذا على الصعيد العام . وعلى الصعيد الخاص أيضا ، لم يكن سهلا أن يتخلى « عبدالناصر » عما فيه من صفات الجمل ــ لا عن (الصبر) .. ولا عن (الاحتمال) .. حتى يجيء الأوان .

فى سنة ١٩٥٤ ــ نشأت أول أزمة بين صلاح سالم و بينى . كان صلاح سالم ــ وقت أن وقعت هذه الازمة بيننا ــ وزيرا للارشاد القومى . وكنت أنا رئيسا لتحرير مجلة (التحرير) ، وهى أول مجلة أسبوعية أصدرتها ثورة ٢٣ يوليو ، وذهب صلاح سالم الى مجلس الثورة طالبا اعفائى من رئاسة تحرير مجلة (التحرير) . ولم يكن عبدالناصر من رأيه .. فحاول أن يثنيه عن طلبه ، مذكرا اياه بما بيننا من صداقة . لكن صلاح سالم الذى كان من طبعه أن يغضب عن انفعال ، و يرضى عن انفعال .. و يصل بانفعاله ، رضاء أوغضبا ، الى الذروة فى كليهما ــ أصر على طلبه ، وذهب فى هذا الاصرار الى حد التهديد بأن يترك مجلس الثورة .. اذا لم أترك انا مجلة (التحرير) .

عندئذ .. لاذ عبدالناصر باحدى أبرز صفاته : لاذ بالاحتمال . و وافق ــ على مضض ــ أن أقوم فى (أجازة مفتوحة) الى حين .

ولكن هذه (الأجازة المفتوحة) ــ وهى أول اجازة من نوعها اعطيت لصحفى فى مصر ــ دامت شهورا عدة . شغلت نفسى ، أثناءها ، بتجميع مقالاتى التى كنت أقوم بنشرها فى مجلة (المصور) ، خلال السنوات الاربع السابقة على الثورة ، والتى كانت تفضح الفساد فى القيادات العسكرية وفى القيادات السياسية على السواء ، فى كتاب أسميته : (دقات الأجراس) . وذهبت الى عبدالناصر ، وكان وقتها يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ، لأقدم له نسخة من ذلك الكتاب .

أمسك عبدالناصر بنسخة الكتاب ، وراح يقلب صفحاته وهو ساهم تماما . و بدا وكانه يفكر فى شيء آخر لاعلاقة له بالكتاب الذى بين يديه . وفجأة سألنى :

ــ أنت بتعمل ايه بوقتك .. ؟

قلت :

ــ شغلت بعضه باعداد هذا الكتاب .. أما الآن فانى أشغله بالقراءة .

قال :

ــ أرجوك لاتتضايق . وتأكد من أن الأيام بتحل كل حاجة .

ثم توقف عن الكلام ليجذب نفسا عميقا من سيجارته ــ وكانت

هـذه واحـدة من عاداته المميزة عندما يكون مشغول البال بأمر هام ـــ واستطرد مكملا :

ـــ بتحل حتى محمد نجيب .. !!

كـانـت هـذه أول اشـارة الى أن نهـايـة اللـواء محمد نجيب ـــ كرئيس لمجلس الثورة ـــ قد اقتـربـت . ثم سـكـت عبدالناصر عن الكلام للحـظـة . وعـنـدمـا عـاد الى استـئـنـاف كـلامـه ، لم يـكـرر الاشارة الى محمد نجيب . وانما قال :

ـــ لـقـد اراد صلاح أن يـفـهمنى أنك تتآمر علينا . ومن الجائز أن تكون كـل الـظـروف ضدك . لكننى غير مستعد ، بأى حال من الأحوال ، أن أصـدق أنـك يمـكن أن تتآمر علينا . وذلك لسبب بسيط جدا ، هو أنـك لم تـفـعـل شيـئا كهذا فى وقت كنت فيه قادرا على أن تفعله .. وبمنتهى السهولة .. لو أن هذا كان من طبعك .

وعـنـدمـا انتهـت جلستنا .. وقف يصافحنى مودعا ، وهو يربت بيده القوية على كتفى .. قائلا :

ـــ مرة ثانية بأقول لك : أصبر .. كل حاجة فى الدنيا بتتحل بالصبر .

وفى هـذا المجـال نـفسه .. مجال ايمان عبدالناصر بالصبر ـــ وهو ايمان غير محدود بحدود ـــ روى لـى الدكـتـور عـزيـز صـدقـى رئيس الوزراء السـابـق ، أنـه حين كـان وزيـرا للـصـناعة ، وأثناء اجتماع لمجلس الوزراء ، وجـه الـيـه عبداللطيف البغدادى عبارة اعتبرها عزيز صدقى اهانة له ، فـانـسحب من اجتماع مجلس الوزراء ، وخرج يطلب عبدالناصر فى بيته لكى يقدم له استقالته من منصبه .

ورد محمد أحمد السكرتير الخاص لعبدالناصر، بأن الرئيس نائم . فطلب منه ايقاظه لأنه يريده فى أمر لا يحتمل التأجيل .

وأمام اصرار عزيز صدقي على طلبه .. وأمام إشارته الى أن الامر لا يحتمل التأجيل ، قام محمد أحمد بايقاظ عبدالناصر . فطلب منه عزيز صدقـى أن يحدد له موعدا عاجلا يراه فيه.وحين ذهب الى مقابلته ، بدأه عبدالناصر بقوله :

— خير ياعزيز... ؟

ورد الدكتور عزيز صدقى بأن ناوله ورقة مطوية سجل فيها استقالته من الوزارة . وبهدوء شديد .. فتح عبدالناصر الورقة ، وراح يقرؤها .. ثم بهدوء أشد ، نحاها جانبا ..

وقال لعزيز صدقى :

— أعرف السبب .. ؟؟

فحكى له عزيز صدقى ماجرى بينه و بين البغدادى . وما أن سمع عبدالناصر الحكاية حتى استغرق فى الضحك . وقال لعزيز صدقى :

— بقى علشان البغدادى قال لك كلمة زى دى ، تقوم تقدم استقالتك من الوزارة . أمال أنا كان لازم أعمل ايه يوم ماحدفنى صلاح سالم بدواية الحبر فى وشى فى اجتماع لمجلس الثورة ؟ انت ياعزيز اتعلمت حاجات كتير قوى . لكن أنا شايف انك لسه محتاج تتعلم الصبر .

وأكمل الدكتور عزيز صدقى روايته لى بقوله :

— وكان مستحيلا على بعد ذلك أن أظل متمسكا باستقالتى .

* **أعصاب من فولاذ ..**

والى جانب صبر عبد الناصر على ما يكره ــ وكان هذا الصبر مذهلا ــ والى جانب قوة احتماله لما يكره ــ وكانت هذه القوة خارقة ــ كانت له فى قائمة الميزات والخصائص التى صنعت له شخصيته ، وزعامته ، ومكانته ، (أعصاب من فولاذ) .

ولقد أشارت مجلة (لايف) الأمريكية فى تحقيق صحفى عن عبدالناصر كتبه لها مراسلها فى الشرق الاوسط (جيمس بيل) ، ونشرته فى مارس سنة ١٩٥٤م أشارت الى هذه « الأعصاب الفولاذية » التى كانت لعبد الناصر ، بقولها : « ... ويحكى عنه أنه لايفقد أعصابه أبدا » لكن ماقاله الكاتب الأمريكى عن عبدالناصر ، فى هذا الصدد ، لايعدو أن يكون « كلاما مجرداً » يحتاج الى دليل يدعمه . وهأنا أقدم اليك هذا الدليل من خلال هذه القصة التى كنت أحد أطرافها :

قبيل الاحتفال بالعيد الأول لثورة ٢٣ يوليو ــ أتصل بى فى مكتبى بمجلة (المصور) أحد المواطنين (المحاسب محمد عبدالهادى بشركة النيل للصابون) قائلا أنه يريد أن يلقانى فى أمر خطير للغاية .

وعندما ألتقينا .. صارحنى (المواطن) بأنه على صلة ببعض ضباط الجيش . وأنه استطاع ، من خلال صلته بهؤلاء الضباط ، أن يعرف أنهم يرتبون لمؤامرة هدفها اغتيال أعضاء مجلس قيادة الثورة جميعا . فان لم يتمكنوا من ذلك ، فلا أقل من اغتيال عبدالناصر ، باعتباره عقل الثورة وقلبها ، وأنهم ــ أى الضباط المتآمرين ــ قد حددوا مناسبة الاحتفال بالعيد الأول للثورة موعدا لتنفيذ مؤامرتهم . وقال لى المواطن ، وهو

يرتجف ، أنه حاول الاتصال بعبد الناصر لينقل اليه تفاصيل هذه المؤامرة ، فلم ينجح . ولأنه يعرف حقيقة علاقتى به ، فقد قرر أن يلقانى لكى يحملنى أمانة تبليغه بما يدبر له ... ولبقية زملائه .. قبل أن يسبق السيف العزل . قلت للمواطن :

— أننى أرى أن تقوم أنت بنفسك بابلاغ عبد الناصر بكل ماعرفت .. لانك سوف تكون أكثر منى دقة فى نقل الصورة اليه .

قال المواطن :

— حاولت ذلك ، كما قلت لك ، ولم أنجح .

قلت :

— اذن ... تعالى الى بيتى الليلة وسوف تجده عندى .

وقبل ساعة من موعد مجىء المواطن الى بيتى ، اتصلت بعبد الناصر فى بيته وقلت له :

— ياترى أنت فاضى أم مشغول ؟

قال :

— عندى صلاح سالم وزكريا محيى الدين . فيه حاجة ؟

قلت :

— كنت عايزك تيجى لى البيت شوية .

ودون أن يسألني : لماذا .. ؟ وكان هذا شيئا غريبا — قال :

— عشر دقايق .. وأكون عندك .

فلما جاء .. كان أول سؤال وجهته اليه :

ـ يعنى ماسألتنيش فى التليفون أنا عايزك ليه ؟

قال :

ـ أنـا قدرت أنك لا يمكن تطلبنى بهذه الطريقة الا لأمر خطير يتصل بى أنا .. ولا يتصل بك !!

وفى الموعد المتفق عليه ، جاء (المواطن) .. فقدمته اليه بكلمة عاجلة .. ثم تركت له المجال ليروى بنفسه تفاصيل كل شيء .

وبدأ (المواطن) يحكى .. وعبدالناصر يسمع .. دون أن يهتز فى وجهه عصب .. ودون أن يبدو عليه أنه يستمع الى تفاصيل مؤامرة هدفها الأول .. والأخير .. اغتياله هو قبل أى شخص آخر .

كان يمسك بين يديه بفنجان من القهوة ، أخذ يرشف منه فى بطء شديد ، وقد دس رأسه الكبيرين كتفيه العريضين .. وركز عينيه الحادتين كعينى الصقر على وجه (المواطن) الذى راح يحكى .. ويحكى .. وبعد أن انتهى (المواطن) من حكاية ماعنده . سأله عبدالناصر :

ـ هل أنت على استعداد لمعاونة أحد رجالنا فى عمل تسجيل صوتى لأحد اجتماعات هؤلاء الضباط ؟ ان ذلك هو (شاهد الاثبات) الوحيد الذى أستطيع أن أعول عليه .

فكر (المواطن) لحظة .. ثم قال :

ـ أن هؤلاء الضباط أصدقائى .. وهم أعزاء على .. ولكن الثورة التى يدبرون للقضاء عليها بأغتيالك ، أعز على منهم . لذلك ، فأنا مستعد

لأن أقوم بكل ماتطلبه منى . خاصة وأنهم سوف يجتمعون عندى الليلة لوضع اللمسات الأخيرة على خطتهم . غير أننى لا أملك جهاز تسجيل .

قال عبدالناصر :

— دع هذا لنا . سنأتى لك نحن بجهاز تسجيل . وكل المطلوب منك أن تهيىء الجو للرجل الذى سوف أختاره للقيام بهذه المهمة .

وقام الى حيث كان يوجد « التليفون » وطلب مدير مكتبه — وكان وقتئذ .. الصاغ أمين شاكر — وقال له :

— هات جهاز تسجيل معاك .. وتعال ، فورا ، الى بيت فلان .

وبينما كان عبدالناصر يتحدث فى التليفون مع أمين شاكر . قال لى (المواطن) :

— أرجوك تطلب من حضرة البكباشى أن يأخذ المسألة بجدية أكثر .... فأنها أخطر مما تتصور !

قلت له :

— ثق من أنه واخدها بمنتهى الجدية . ولكن هذه هى طبيعته . لا يظهر عليه شيء حتى لو كان الأمر متصلا باغتياله .

ولحق بنا عبدالناصر .. ونحن مانزال فى نهاية الحديث . فتساءل :

— ماذا تقولان ؟

فرويت له ماكان (المواطن) يقوله .. فضحك وقال موجها كلامه للمواطن :

ـ والله أنا واخد المسألة جد جدا . ولكن .. كنت عايز يحصل ايه علشان تتأكد انى واخدها جد . كنت عايز فنجان القهوة يقع من ايدى مثلا علشان تطمئن أنى واخدها جد ؟

*** عقل يفكر... ويدبر**

وماهى الا لحظات حتى كان « أمين شاكر» قد وصل ، ومعه جهاز التسجيل . فشرح له عبدالناصر المهمة التى اختاره ليقوم بها . وطلب منه أن يخلع رداءه العسكرى ، و يرتدى بدلا منه رداء مدنيا من عندى . ولحسن الحظ أن « أمين شاكر» وأنا .. كنا من حجم واحد تقريبا : طولا وعرضا . وعلى ذلك ، لم تظهر بدلتى حين ارتداها « أمين » أنها ليست بدلته . كذلك طلب عبدالناصر من « أمين » أن يترك السيارة (الچيب) التى جاء بها أمام بيتى ، و يأخذ سيارتى بدلا منها .. حتى لا يكون فى مظهره الشخصى ، ولا فى مظهر السيارة التى يركبها ، مايمكن أن يستلفت نظر أحد . ثم قال له فى ختام توجيهاته :

ـ ولا تنسى أن تأخذ (طبنجتك) معك . !!

....

....

وذهب أمين شاكر برفقة ذلك المواطن الى منزل الأخير ، حيث كان الضباط المتآمرون سوف يجتمعون لوضع اللمسات الأخيرة على خطتهم لاغتيال عبدالناصر ورفاقه .

و بقى أمين فى « مسرح المؤمرة » من الساعة العاشرة مساء حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى ، وهو يقوم بتلك المهمة الخطرة التى

كلفه بها عبدالناصر، والتى كان محتملا جدا ــ فيما لوأكتشف المتآمرون وجوده ــ أن تكلفه حياته .

وغادر المتآمرون « مسرح المؤامرة » ... وهم يفركون أيديهم ارتياحا الى أن كل شيء قد أضحى على مايرام .. وأنهم ذاهبون الى بيوتهم لينناموا ملء جفونهم فى انتظار اليوم الموعود .. والساعة الموعودة لاغتيال عبدالناصر ورفاقه . ولكنهم ماكادوا يضعون أقدامهم على عتبة الباب الخارجى لمسرح المؤامرة .. حتى وجدوا فى انتظارهم قوة من رجال البوليس الحربى تطبق عليهم ، وتعود بهم الى مقر مجلس قيادة الثورة .

تلك قصة عشتها بنفسى .. وكنت أحد شهودها وأطرافها . وهى أن دلت على شيء ، فانما تدل على ما كان لعبدالعناصر من « اعصاب فولاذية » .. ومن قدرة جبارة على ضبط النفس فى أى وقت ، وفى كل وقت .. فى أشدها خطرا ، وفى أكثرها حلوكة .

....

....

وبهذه « الأعصاب الفولاذية » نفسها .. كان يجلس ذات ليلة من ليالى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٦ ــ أى بعد نحو شهرين من تأميم قناة السويس ــ مع عدد من وزرائه الذين كان قد دعاهم الى العشاء فى استراحة الهرم ، فاذا برسول يستأذن فى الدخول عليه بتقرير عاجل من هيئة المخابرات . وقرأ عبدالناصر التقرير بامعان شديد ، ثم طواه برفق ودسه فى جيبه دون أن تبدو على وجهه أية علامة تدل على أنه قرأ شيئا ذا خطر .

وقدم العشاء لعبدالناصر وضيوفه . و بعد العشاء ، جلس الجميع يتحدثون .. و يتسامرون .. حتى ساعة متأخرة من الليل . وفى صباح اليوم التالى .. كانت المفاجأة التى لايكاد أحد أن يصدقها . لقد صارح عبدالناصر زملاءه الذين كانوا يتناولون العشاء معه بمضمون التقرير الذى قرأه على مرأى منهم ، ثم طواه وكأنه لم يقرأ شيئا . قال لهم : ان هذا التقرير كان يتضمن أن سفن الأسطول البريطانى تتجه ــ فى شكل مروحة ــ نحو الاسكندرية تمهيدا لغزو مصر .

وارتسمت دهشة لاحدود لها على وجوه الوزراء الذى صارحهم عبدالناصر بمحتوى ذلك التقرير . وقال له أحدهم :

ــ ومع ذلك ، كنت تلح علينا للبقاء معك لمزيد من السمر ! !

فأجاب عبدالناصر .. و بنفس الهدوء المذهل الذى قرأ به تقرير المخابرات .

ــ لأننى قدرت أن ماجاء فى ذلك التقرير ، لن يحدث بين يوم وليلة . واذا حدث ، فنحن جاهزون له .. ولن تجنى بريطانيا من ورائه الا عاراً لن تمحوه الأيام .

.... ولقد كان

* ميقاتى عظيم ....

ولقد نجحت هاتان الصفتان البارزتان المميزتان لعبدالناصر .. وهما : السيطرة ، بغير حدود ، على الأعصاب . والقدرة الجبارة على ضبط النفس ــ نجحتا فى أن تجعلا منه « ميقاتيا عظيما » ... وكانت ثقته

« بالـوقـت » ، و بـأنـه يـعـمل دائما فى خدمته ولمصلحته ، ثقة مذهلة .. ولـيـس فى مقدور أى انسان أن يثق « بالوقت » .. و بأنه يعمل ، دائما ، فى خـدمـتـه .... ولمـصـلـحـتـه ، الا اذا كـان مـتـمـتعا بما كان يتمتع به عـبـدالـنـاصر مـن سـيـطـرة ــ بغير حدود ــ على الأعصاب .. ومن قدرة خارقة على ضبط النفس .

ولـقـد حـاول بـعض الناس أن يصوروا قراره بتأميم قناة السو يس ، بأنـه كـان (قـرارا انـفعاليا) جاء كرد فعل من جانبه على قيام أمر يكا بـسـحب عرضها لتمو يل مشروع « السد العالى » . وليس هذا التصو ير صـحـيـحـا . وانما الصحيح أن عبدالناصر ــ قبل أن تفعل أمر يكا فعلتها هـذه بـزمـن طو يل ــ كان قد كلف مجموعة من الخبراء القانونيين ، على رأسـهم القانونى العظيم المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى ، بان يعدوا له دراسة قانونية مكتملة الجوانب عن امكانية تأميم قناة السو يس . وفرغ الخـبـراء الـقـانـونـيون من دراستهم ، وقدموها لعبدالناصر الذى عكف ، بـدوره ، على دراستـهـا .. ثم أودعـهـا أحـد أدراج مـكـتبه فى انتظار اشارة « الايـام » بـالـتـنـفـيـذ . فـلما فـعلت أمر يكا فعلتها ، وجدها فرصة لا تعوض لـكـى يـضـرب ضـر بته . فأخرج مشروع تأميم قناة السو يس من مخبأه ، وأعطى الأمر بالتنفيذ، فلا انفعال اذن .. ولا شبهة انفعال . وانما استخدام بـارع للـسـلاح المـنـاسـب .. وفى الـوقـت المـنـاسـب . شعبيا ، وتاريخيا ، ودوليا .

....

....

ه قصة ثانية تزيد معالم صورته « كميقاتى عظيم » وضوحا :

فى مارس سنة ١٩٥٤ كنت فى زيارته بمكتبه بمجلس قيادة الثورة ، ودار الحديث بننا حول موضوعات كثيرة . كان من بينها موضوع الاعتداء الذى قام به جمع من المتظاهرين على مجلس الدولة ، ورئيسه القانونى العظيم الدكتور عبد الرازق السنهورى . وعندما وصل بنا الحديث الى هذه النقطة .. انحنى عبد الناصر نحو واحد من أدراج مكتبه ، واخرج منه حزمة من الاوراق .. ولوح لى بها قائلا :

ـ أترى هذه الأوراق ؟ أنها قائمة بأسماء الرجال الذين شاركوا فى الحكم قبل الثورة ، وقررنا عزلهم عن ممارسة العمل السياسى . ولكننى كنت قد جمدت هذه القائمة ، ولم أذعها اكراما للدكتور السنهورى .. وللجهد الكبير الذى بذله معنا فى الأيام الأولى للثورة . اذا أنه واحد من هذه الأسماء . ولكن ـ بما أن السنهورى قد أتهمنى ، أمام النيابة ، باننى أنا الذى دبرت حادث الاعتداء عليه .. وعلى مجلس الدولة .. فأنا ، اذن ، فى حل من اذاعة هذا القرار .. فمادمت ليس لى « خاطر » عنده ، فليس يصح أن يكون له « خاطر » عندى .

وفعلا ... أذاع عبد الناصر قراره . وعزل السنهورى سياسيا .

....

....

* ..... وقصة ثالثة :

فى الشهور الأولى للثورة ـ أستأذنته فى أن التقط صورة لاعضاء مجلس قيادة الثورة مجتمعين ، لكى أقدمها هدية من مجلة (المصور)

لقرائها . وافقني على فكرتي ، والتقطنا الصورة . ولكنه في ليلة الخميس ــ وهي الليلة السابقة على نزول (المصور) الى الأسواق ــ أتصل بي تليفونيا ودعاني الى مقابلته في مجلس الثورة . وهناك سألني :

ــ أيه اخبار الصورة أياها ؟

قلت :

ــ طبعناها .. وأصبحت جاهزة للتوز يع .

قال :

ــ لا .. أنا لا أر يد أن توزع هذه الصورة .

قلت :

ــ هل من حقي أن أعرف السبب ؟

قال :

ــ أنه سر أأتمنك عليه . ان في هذه الصورة أثنين فرضتهما الظروف على مجلس الثورة . وأنا أترقب « الوقت المناسب » لاخراجهما منه . ولا أحب أن يرانا الناس في هذه الصورة كذا فردا : ثم يروننا ، بعد أيام قليلة ، وقد نقصنا أثنين . انها علامة ليست طيبة . كما أنها ليست في صالحنا . والذي أر يده منك ، الآن ، هو أن تعدم هذه الصورة . ولنتفق على أن سبب اعدامها هو انك لم تاخذ مني اذنا بنشرها .

وقد كان . . .

أعدمت الصورة .. بعد أن أفهمت صاحبي (المصور) ــ وكانت ثقتها بي بلا حدود ــ أنني تجاوزت عندما قلت لها أنني أستأذنت

عبد الناصر فى نشرها وتوزيعها . لكننى ، فى الحقيقة ، لم أكن قد استأذنته .

ومما لاشك فيه أن هذه المقولة ، كانت خصما من رصيدى الذى استطيع أن أزعم أنه كان كبيرا جدا لدى صاحبى (المصور) . لكننى احتملتها راضيا فى سبيل ذلك (السر) الذى قال لى عبد الناصر أنه يأتمننى عليه .

أما الرجلان اللذان قال عبد الناصر أن الظروف قد فرضتهما على مجلس الثورة ، وأنه يترقب « الوقت المناسب » لاخراجهما منه ، فكانا : البكباشى يوسف صديق .. والبكباشى عبد المنعم أمين .

وبالفعل لم تمر على ذلك الحديث أيام طويلة ، حتى كان الرجلان قد أخرجا من مجلس الثورة .. فأرسل الأول للعلاج فى الخارج . وأرسل الثانى الى « بروكسل » .. سفيرا لمصر بها !!

*** عقله .. أمام عواطفه .**

وليس من شك فى أن واحدة من أكبر الميزات التى تميزت بها شخصية عبد الناصر ، والتى وصلت به الى ماوصل اليه من زعامة ومكانة .. أنه كان قادرا دائما ــ وتحت أقسى الظروف .. وأصعبها ــ على أن يضع عقله أمام عواطفه . وربما كانت وقفته فى وجه ذلك التيار الذى تزعمه قائد الجناح جمال سالم .. والذى كان يدعو الى اعدام الملك السابق فاروق .. وعدم السماح له بالخروج من مصر حيا ــ دليلا لايخطئه منصف على تأصل هذه (الميزة) فيه . فلقد كان من رأيه الذى

واجه به صيحة جمال سالم ، الخالية من التعقل و بعد النظر ، أن مثل هذا الاجـراء ــ لو أنه تم ــ فانه سوف يضع الرأى العام العالمى كله فى صف فـاروق .. وضـد الـثورة . بينما الثورة محتاجة لان تكسب فى كل ساعة ــ وليس فى كل يوم ــ صديقا جديدا .

وبهـذا التفكير العقلانى المجرد من كل أثر للعاطفة ، نجح فى أن يأخذ جميـع زمـلائـه فى جـانبه . ولم يعد هناك من يشارك جمال سالم رأيه حتى ولا شقيقه صلاح سالم .

وخـرج فـاروق مـن مصر حـيـا .. ومـكـرمـا الـتـكـريم اللائق بملك مـعزول .. عزله رجل يعرف كيف يضع عقله أمام عواطفه .. ولا يسمح لعواطفه بأن تقود عقله فى الاتجاه الذى تريد .

....

....

* وهـذه قـصـة أخرى .. ليس من شأنها الا أن تزيد صورة عبد الناصر ، كرجل يضع عقله أمام عواطفه ، تحديدا وتأكيدا :

فى اليوم التالى لصدور حكم محكمة الثورة على رئيس الوزراء السابق ابـراهيم عـبـد الهادى بالاعدام ، كنت على موعد مع عبد الناصر فى بيته . وعـنـدمـا دخـلـت عـليه ، وجدته جالسا يتناول افطاره . وما أن جلست حتى بادرنى متسائلا :

ــ ماذا يقول الناس عن الحكم على ابراهيم عبدالهادى ؟

قلت :

— أنهم مستاءون منه الى حد بعيد .

وما أن سمع اجابتى ، حتى توقف عن الطعام وسرح بعينيه طويلا .

ثم قال :

— غريبة !! أو لم يكونوا سعداء بالمحاكمة طوال سيرها ؟

قلت :

— هذا صحيح .

قال :

— فما الذى غيرهم اذن .. ؟

قلت :

— غيرهم أنهم لم يكونوا يتصورون أن الحكم على الرجل سوف يصل الى حد الاعدام . وانت أدرى الناس بطبيعة شعبنا .. أننا عاطفيون .. وأيضا طيبون .. والى أبعد حد .

قال :

— وهل العاطفة والطيبة وحدهما هما السبب فى أستياء الناس من الحكم باعدامه ؟

قلت :

— بل هناك شىء آخر .. لعله كان أشد أثرا فى إحداث هذا الاستياء عندهم من مجرد الطيبة والعاطفة .

قال :

— يهمنى أن أعرفه .

قلت :

ــ أنهم يقولون أن الأنجليز سبق وأن حكموا على نفس الرجل ، فى شبابه ، بالاعدام . ثم عادوا فخففوا الحكم الى السجن ، فليس من المعقول أن تأتى ثورة وطنية وتفعل بالرجل ، فى شيخوخته ، مالم يفعله به الانجليز فى شبابه .

أحتوت عبدالناصر لحظة تفكير عميق . مالبث أن قطعها قائلا :

ــ لولا ثقتى الكاملة بأنك لاتربطك بابراهيم عبدالهادى رابطة من أى نوع .. لكان لى فى هذا الكلام رأى آخر.

ولم تكن مفاجأة لى عندما علمت ، بعد ذلك بأيام قليلة ، أن مجلس الثورة قد خفف الحكم على ابراهيم عبدالهادى من الاعدام الى السجن المؤبد . كذلك لم تكن مفاجأة لى عندما علمت ، بعد ذلك بعدة شهور ، أن قرارا صدر من مجلس الثورة بالافراج عن الرجل .. لأسباب صحية .

فلقد كان وراء ذلك كله .. رجل يضع عقله أمام عواطفه .

وأذكر أن عبدالناصر تحدث ــ فى نوفبر سنة ١٩٦١ ــ الى أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى معرض الحديث عن الثورة .. وكيف أنه ليس واردا بالنسبة لها أن تنتقم من خصومها ــ تحدث اليهم عن هذه القضية بالذات ، فقال لهم « لقد استدعانى ابراهيم عبدالهادى بعد حرب فلسطين وحقق معى بنفسه سبع ساعات كاملة وأنا واقف أمامه فى مجلس الوزراء وأخذ يسألنى .. و يشدد فى السؤال . فهل أنتقمت منه بعد ذلك ؟ أبدا لم أنتقم . لقد كان محكوما عليه بالأعدام . وفى مجلس الثورة ــ وأعضاء موجودون معكم هنا ــ كنت أنا الذى دافعت عنه لكى أعدل حكم الاعدام الى المؤبد ..

فالشعب رحيم . ونحن من هذا الشعب . ونحن لم نأت من كاليفورنيا وأنا من بنى مر . من هنا . من هذا البلد الطيب » .

....

....

* وقصة ثالثة : كنت أجلس معه فى صالون منزله . وكان ثالثنا فى هذه الجلسة المرحوم البكباشى عبدالرحمن أمين الذى كان ، وقتها ، يشغل منصب السكرتير العام للاتحاد الرياضى العسكرى . وتنقل بنا الحديث فى مواضيع شتى . وانتهز عبدالرحمن أمين فرصة توقف الحديث للحظة .. وباغت عبدالناصر بهذا السؤال :

ــ موش آن الآوان ياريس علشان تخلصنا من تماثيل أسرة محمد على اللى مالية الميادين ؟!

وركز عبدالناصر عينيه الحادتين على وجه عبدالرحمن أمين . وسأله :

ــ زى مين ياعبدالرحمن ؟

قال :

ــ زى ابراهيم باشا مثلا ..

وما أن سمع عبدالناصر اسم « ابراهيم باشا » حتى قفزت الدهشة فاحتلت مساحة وجهه كله ، وراح يهز رأسه الكبير يمينا و يسارا .. علامة الاستغراب والدهشة ، قبل أن يقول :

ــ مؤكد ياعبدالرحمن أنت عمرك ماقريت تاريخ .

قال عبد الرحمن :

— ليه بس يار يس ؟

قال عبدالناصر :

— لانك لوكنت قريت تاريخ ، ماكنتش فكرت أبدا انك تطالبني بازالة تمثال ابراهيم باشا . ازاى ياعبدالرحمن تبقى راجل عسكرى ومتعرفش أن كل أمجاد الجيش المصرى مرتبطة باسم ابراهيم باشا اللى أنت عايزنى أهد تمثاله . وحتى محمد على نفسه مستحيل انكار دوره الضخم فى بناء مصر الحديثة .. برغم المظالم اللى أصابت جموع الشعب ، وخصوصا الفلاحين على ايديه . لكن دى حاجة .. ودور الراجل فى بناء مصر حاجة تانية خالص . على فكرة ياعبدالرحمن دى آخر حاجة كنت أفكر أسمعها منك .

وغرق الرجل الطيب عبدالرحمن أمين فى بحر من العرق .

ولعلنا ، الآن ، نكون قد عرفنا لماذا بقى تمثال ابراهيم — حتى هذه اللحظة — يتوسط (ميدان الاوبرا) فى القاهرة . ولماذا بقى تمثال محمد على — حتى هذه اللحظة — يتوسط (ميدان المنشية) بالاسكندرية على الرغم من قيام ثورة استهدفت — أول ما استهدفت — أزالة أسرة محمد على من الوجود المصرى ، واعادة حكم مصر الى ابنائها الحقيقيين .

انهما — أى تمثالا ابراهيم .. ومحمد على — لم يبقيا فى مكانيهما هذين بطريق الصدفة ، ولا عن طريق السهو . وانما بقيا فيهما لانه كان على رأس هذه الثورة نفسها رجل يعرف — و باصرار — كيف يضع عقله أمام عواطفه .. فى أصغر الأمور ، وفى أخطر الأمور على السواء .

٭ هل كان مفتونا بذاته ؟

ولقد يسألنى سائل من الملايين التى لم تعرفه الا صورة من بعيد :

ــ هل كان فى عبدالناصر شىء من الافتتان بذاته ؟

وأجيب :

ــ من المؤكد أن عبدالناصر لم يكن متكبرا ولامتعاليا . صحيح أنه كان « قويا » بصورة ملفتة ، الا أنه لم يكن خشنا ولا شرسا .. وأنما كان انسان بسيطا ، وطبيعيا الى أبعد الحدود . كذلك لم يكن عبدالناصر متكلفا ، ولا ممثلا ، ولا متظاهرا بما ليس فيه من صفات . وصحيح ايضا انه كان شديد الاعتداد بكرامته الشخصية .. شديد الاعتداء بذاته . الا ان هذا الاعتداد بالذات لم يتحول عنده ، منذ أن بدأ .. والى أن مات ، الى نوع من « الافتتان بالذات » والفرق شاسع جدا بين « الاعتداد بالذات » و« الافتتان بالذات » . فكل سلوكيات الرجل ــ سواء فى حياته الخاصة أو فى حياته العامة . وسواء فى مظهره ، وفى ملبسه الذى كان يظهر به بين الناس .. او الذى كان يقابل به زائريه فى بيته ــ تؤكد مدى ابتعاده عن « الهوس الشخصى » وعن « الافتتان بالذات » .

واذكر انه فى سبتمبر سنة ١٩٥٧ ــ وبعد أن كان قد أمم قناة السويس . وراح الغرب كله ، نتيجة لذلك القرار الثورى التاريخى ، ينظر اليه على أنه (هتلر جديد) .. ولم يعد أحد ، فى الغرب كله ، مستعدا لأن يقول فيه كلمة حق واحدة ــ إلتقت به الكاتبة الأميريكية

الشهيرة « دورثي طومسون » لمدة ثلاث ساعات كاملة ، خرجت الكاتبة بعدها بانطباع خاص عنه نشرته فى صحيفة « واشنطون ستار » . جاء فيه :

« .. كان موعد اللقاء فى الساعة السادسة بعد الظهر. لكننى وصلت قبل الموعد المحدد بدقائق . فأدخلت الى غرفة جلوس متوسطة الحجم ، تضم مكتبا كبيرا صفت فوقه ملفات مرتبة ، كما تضم مقعدين كبيرين الى جانب عدد آخر من المقاعد العادية . وفى السادسة ، بالضبط ، ظهر ناصر.

« كان يرتدى قيصا أبيض مفتوح الرقبة ، و« جرسا » من الصوف الرمادى بلا أكمام ، وبنطلونا رماديا داكنا . وبدأ أشبه بالرجل الرياضى منه برجل السياسة . وكانت هناك اشاعة فى القاهرة ـ ضمن الآف الاشاعات ـ تقول : أن الأزمة انهكته . لكننى رأيته فى أحسن حال .

« وعندما دخل ناصر الغرفة ، لاحظت أن خطواته كانت نشطه .. وان عينيه كانتا تلمعان .. وان تصرفاته كانت طبيعية وصريحة بصورة جذابة . ومهما يكن من أمر ناصر، فانه ليس بالرجل الذى يتحذلق فى ملبسه .. وهو لا يوحى قط بالتكلف ، كما أنه يثير فى النفس بالغ الاعجاب » .

ولقد يعود السائل : الذى لم يعرفه الا صورة من بعيد ، فيسأل :

— وهل كان عاطفيا ؟

وأجيب :

— أستطيع القول أنه كان واقعيا أكثر منه عاطفيا . وكان حازما الى حد يقترب به فى بعض الأحيان ، وربما فى كثير من الأحيان ، من حدود

مـا يمـكـن أن نـعـتبره نوعا من « القسوة » . ولكى أدلك الى أى مدى كان الرجل واقعيا اكثر منه عاطفيا ، أسوق لك هذه القصة :

ذات يـوم من سنة ١٩٥٣ ــ كنت أقف معه فى حديقة داره . وكان يـقـف مـعـنا البكباشى أحمد أنور قائد البوليس الحربى ، حينئذ ، عندما جاءه والده ليقول له أن الكلية الحربية رفضت قبول شقيقه بين طلابها ، لان سنه تزيد بثلاثة عن السن المقررة .

فسأل عبدالناصر والده :

ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

قال الوالد :

ــ أريدك أن تحدث القائد العام (وكان عبدالحكيم عامر) فى الأمر فان له ــ قانونا ــ حق الاستثناء من هذه القواعد فى حدود نسبة معينة .

وبهدوء شديد . . أجاب عبدالناصر والده :

ــ أنـا لا أحـب أن أكـلـم القائد العام فى شىء شخصى كهذا . وأنت تـعـرف طـريـق الـقـائـد الـعام ، فاذهب اليه أنت . لانك لو كلمته فانه يـسـتـطـيـع أن يـقـول لـك : نـعـم ، و يـستطيع أن يقول لك : لا . أما لو كلمته أنـا ، فـانـه سوف يعتبر كلامى فى هذا الموضوع أمرا . وهذا شىء لا يمكن أن أفعله .

ومـا أن سـمـع الـوالـد اجـابـه والـده حـتـى ثارت ثائرته . . وراحت الـكـلـمـات تتدافع من فه كطلقات الرصاص المتلاحقة . وكانت كلها

تذكيرا لولده بالجهد الجبار الذى بذله معه حتى نجح فى ادخاله الكلية الحربية . وختم الأب ثورته بان صفق باب الحديقة وراءه بعنف شديد ، وخرج مهرولا الى الشارع . فخرج وراءه البكباشى أحمد أنور محاولا اللحاق به لتهدئته واسترضائه .

وبينما كان أحمد أنور يقوم بمحاولته هذه ، سألنى عبدالناصر :

— أنت رايح على فين بعد كده ؟

قلت :

— على دار الهلال .

قال :

— اذن أركب معك توصلنى الى مجلس الثورة .

وركب عبدالناصر معى . بعد أن أمر سائق سيارته الخاصة بأن يأتى خلفنا .

ومضينا نشق شوارع القاهرة من بيته فى منشية البكرى الى مقر مجلس الثورة بالجزيرة — وهى مسافة جد طويلة — متوقعا ، فى كل لحظة ، أن يعاود الحديث فيما جرى بينه وبين والده . لكنه لم يفعل . بل مضى يحدثنى فى أمور أخرى كثيرة لا علاقة لها من قريب .. ولا من بعيد بذلك الذى جرى من لحظات . وكأن شيئا لم يحدث !!

ولقد يعود السائل فيسأل :

— .. وهل كان مستقيما فى حياته الخاصة ؟

وأجيب :

ـــ من المؤكد انه كان كذلك ، والى أبعد حد . ومن المؤكد أيضا أن استقامته الشخصية المبهرة هذه ، كانت واحدة من أبرز أسرار قوته كزعيم .. وكرجل دولة . فلم يكن عبدالناصر يشرب . ولم يكن يسهر خارج بيته ، ولا بعيدا عن أسرته . وفى الجملة ، لم تكن له أية نزوات أو مثالب شخصية من أى نوع . كان (العمل) هو هوايته الحقيقية . بل كان هو هوايته الأولى والأخيرة . وكانت لديه القدرة على أن يعمل عشرين ساعة فى الأربع والعشرين ساعة . كان يقرأ كل الصحف العربية ، و يستمع الى كل اذاعات العالم ، حتى تلك التى لم يكن لها من هم سوى أن تهاجمه ، وتسبه ، ليل نهار . كان يقرأ ، و يتزود ، و يضيف الى نفسه ، فى كل يوم ، جديدا يرتفع به الى مستوى مسئوليته والى مستوى زعامته . والذين أتيح لهم أن يتابعوا مناقشاته فى اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الذى عقد فى نوفمبر سنة ١٩٦١ ؛ وأيضا الذين أتيح لهم أن يتابعوا مناقشاته فى محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر ، وسوريا ، والعراق ـــ على مدى شهرى مارس وابريل سنة ١٩٦٣ ـــ يستطيعون ، قبل غيرهم .. وأكثر من غيرهم ، أن يدركوا الى أى مدى عرف عبدالناصر كيف يرتفع بنفسه الى مستوى مسئوليته وزعامته . ولو أن الرجل كان موزع القلب والعقل بين مسئوليات زعامته ، و بين أية نزوات شخصية من أى نوع .. لما تحقق له أى قدر من هذه القوة التى صارت له . أيضا لو كانت لعبدالناصر أى مثالب شخصية من أى نوع .. لما قدر على أن يواجه الذين أبتلوا بتلك المثالب ، بمثل ذلك

العنف الذى كان يواجههم به ، والذى أتيح لى أن أعرف من صوره الشيء الكثير.

* الخط الأخير.. فى الصورة

فى أول خط من هذه الصورة التى حاولت ، بالكلمات ، أن أرسمها لعبدالناصر ــ كما عرفته ــ قلت أنه لم يكن « انفعاليا » .. لا بطبعه ولا بطبيعته . وأنه كان يتمتع بقدرة أسطورية على التحكم فى الأعصاب .. وضبط النفس .. والصبر على مواجع كثيرة ليس باستطاعة كثيرين جدا من عامة الناس .. وخاصتهم ايضا ، أن يوفروا لانفسهم الحد الأدنى منها . فهل معنى هذا أن الأيام .. وكذلك الأحداث والأزمات التى مر فيها ومر بها ، لم تستطع أن تنال منه ؟ وأنه بقى ، وحتى اللحظات الأخيرة من حياته ، محتفظا بكل خصائصه .. وأيضا بكل ميزاته التى أوضحها « أول خط » من هذه الصورة ، دون أن يلحق بها تغير ولا تبدل ؟

من المؤكد أن الأيام ، والأحداث ، والأزمات قد أضافت الى عبدالناصر الشيء الكثير.. أضافت اليه معرفة عميقة وعريضة بالبشر.. بنوازعهم وبدخائل نفوسهم .. وأيضا بالسياسة ودهاليزها وأغوارها . وأحسبنى لا أنحرف عن الدقة فى رسم صورة الرجل ، اذا ماقلت أنه بقدر ما أضافت اليه الأيام ، والأحداث ، والأزمات .. بقدر ماأخذت منه ــ فى ذات الوقت ــ الكثير. أخذت شيئا كثيرا من قدرته المذهلة على ضبط نفسه .. وعلى تحكمه الخرافى فى أعصابه وأنفعالاته .

فاصبح الرجل الذى لم يكن ينفعل ــ ابدا ــ أصبح ينفعل كثيرا .. وينفعل سريعا .. وراحت قراراته نفسها تأخذ طابع هذا الانفعال الكثير والسريع .

ولعلى أستطيع القول أن بداية ذلك التغيير الذى أصاب ذلك الرجل الكبير، كانت فى اعقاب العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، والذى جاء ردا على قيامه بتأميم قناة السويس . فلقد خرج عبدالناصر من هذه المعركة مصاباً بمرض السكر فى الدم . واذا كان مستحيلا بالنسبة لرجل فى مثل حجمه .. وله على مسرح الأحداث مثل دوره .. أن لاينفعل ، أو أن يتجنب المضايقات والمتاعب ــ وهى أشياء ضرورية .. بل وحتمية للسيطرة على مسار ذلك المرض الذى أصابه ــ فقد كان طبيعيا أن تشتد وطأة المرض عليه كنتيجة طبيعية لكل الظروف ، ولكل الأحداث والأزمات التى كانت تفرض نفسها عليه فرضا ، كجزء لايتجزأ من طبيعة دوره .. ومن طبيعة حياته .

فلما أن انفرط عقد الوحدة مع سوريا .. ازدادت صحته سوءاً . ثم جاءت (حرب اليمن) فنالت ، بدورها ، كثيرا من قواه . ثم أعقبتها ــ ودون ماأية فرصة لالتقاط الأنفاس ــ حرب ٦٧ بهزيمتها المروعة .. وبنتائجها التى تجاوزت كل حساباته وتوقعاته ، فأحدثت ــ ليس بنفسه فقط ــ وانما بقلبه أيضا ، شرخا أستطيع القول أنه فاق كل ماسبقه من شروخ .

صحيح أنه كان يقاوم .. وبعناد ، وأصرار، هما جزء لايتجزأ من طبيعته وتكوينه . وصحيح أيضا أن استقامته المذهلة من ناحية ، وبنيانه

الجسماني القوى من ناحية أخرى ـ قد ساعداه كثيرا على الثبات فى مواجهة نتائج كل تلك الاعاصير.. وعلى الاستمرار فى مقاومتها . الا أن المؤكد ، برغم هذا كله ، أن (السنديانة الشامخة) كانت قد غدت على غير ما كانت عليه من الصلابة والقوة ، ومن القدرة الخارقة على مواجهة الاعاصير التى راحت تهب عليه من كل الاتجاهات ، و بكل العنف والشدة ، وفى وقت واحد تقر يبا !!

وكان قضاء مقضيا أن تسقط (السنديانة الشامخة) بصورة مفاجئة .. ودفعة واحدة . وعندما سقطت ، كان سقوطها مذهلا ومروعا معا .. ليس للعرب من المحيط الى الخليج فحسب . وانما لكل العالم الذى لاجدال فى أن أكثره كان يحبه ويحترمه .. وأقله كان يكرهه لكنه يحترمه .. وجميعهم كانوا يحملون له أعمق الأعجاب .

الفصل الثالث :

... لولم يواجهنى عبدالناصر؟ !

حدث ذلك فى صيف سنة ١٩٥٣ .. وكان اليوم يوما من أيام شهر رمضان . وكنت جالسا فى مكتبى بمجلة « التحرير» أتأمل ما حولى ، بعد اذ فرغت من عملى .. ولم يبق أمامى ما أفعله سوى أن ألملم أوراقى ، وأغادر المكان منصرفا الى بيتى . وفجأة دق جرس التليفون . رفعت السماعة لأجد على الطرف الآخر، قائد الجناح وجيه أباظة (ووجيه واحد من أبرز الضباط الأحرار الذين كان لهم دور كبير، وخطير، فى ثورة ٢٣ يوليو.. وأيضا فى الهجمات الفدائية المنظمة على معسكرات الانجليز فى منطقة قناة السويس ، قبل قيام الثورة) وكان « وجيه » وقت أن وجدته على الطرف الآخر من التليفون ، يشغل منصب المدير العام لشركة النيل للسينما والاعلان ــ وهى احدى الشركات التى أنشأتها الثورة ، لكنها لم تعمر طويلا .

سألنى وجيه :

ــ ماذا تفعل الآن ؟

قلت :

— لا شيء . فلقد أنهيت عملى ، وأستعد للعودة الى البيت .

قال :

— اذن ، ما رأيك .. أرسل لك ، الآن ، تذكرتين لفيلم « فيفا زاباتا » المعروض فى « سينما كايرو » . واعمل تليفون للمدام حليها تحصلك على هناك . وأهى فرصة .. تسللى صيامك من ناحية ، ومن ناحية تانية تشوف فيلم عظيم موش لازم يفوتك .

وافقت على اقتراح صديقى وجيه أباظة . واتصلت بزوجتى بالمنزل وطلبت منها مقابلتى أمام دار السينما . وبينما أنا فى انتظارها ، اذا بسيارة سوداء فارهة تتوقف أمام دار السينما .. ويهبط منها « الرئيس محمد نجيب » .. ويهبط خلفه قائد الأسراب حسن ابراهيم ، عضو مجلس قيادة الثورة .. ووزير شئون رئاسة الجمهورية فى ذات الوقت .

صافحنى الرئيس نجيب . وكذلك فعل حسن ابراهيم . وبعدها سألنى الرئيس :

— هل تنتظر أحدا .. ام تأتى معنا . ؟

شكرت الرئيس على دعوته ، وقلت له أننى أنتظر زوجتى .

فجأة ... تنبه الجمهور الكبير الذى كان يتدفق على دار السينما لمشاهدة ذلك « الفيلم » الى وجود محمد نجيب . وفجأة أيضا ، راح المكان يدوى بالتصفيق .. وهتافات كهزيم الرعد بحياة الرجل الذى عرفته الجماهير قائدا لثورة ٢٣ يوليو .

وعندما أصبح الرجل داخل صالة السينما ، وقبل أن تطفىء الأنوار ، ازدادت مظاهر استقباله اشتعالا .. وأخذت الهتافات باسمه ترج أركان

السينما رجا عنيفا . وكأنما نسى الناس أنهم جاءوا ليشاهدوا « فيفا زاباتا » ، وليس لكى يشقوا حناجرهم بالهتاف باسم محمد نجيب .. و يدموا أيديهم بالتصفيق له . !!

وما ينبغى أن يكون هناك خلاف على أن جماهير الشعب كانت مفتونة ـــ حقا وصدقا ـــ بمحمد نجيب . كذلك ماينبغى أن يكون هناك خلاف على أن هذا الافتتان بمحمد نجيب لم يبدأ من فراغ . وانما كانت له لدى جماهير الشعب أسبابه ودواعيه . فلقد كان الرجل هو أول وجه عرفه الشعب من وجوه « ثوار يوليو» . و باسم هذا الرجل ـــ كما قدمنا ـــ أتخذت كل القرارات الخطيرة والعظيمة ، التى أتخذتها الثورة فأشعلت بها حماسة الجماهير، وحركت بها أحلامها ، وأحيت بها آمالها فى أنها أصبحت قادرة على تحقيق أشياء ما كانت لتجرؤ، من قبل ، على مجرد التفكير فيها .

طبيعى ، اذن ، أن تفتن جماهير الشعب كل ذلك الافتتان بالرجل الذى تحققت لها ، على يديه .. أو باسمه ، كل تلك الاحلام التى كانت الطريق الى تحقيق حلم واحد منها فحسب .. محفوفة بزبانية جهنم ، ومحتشدة بالوحوش والأهوال .

ولكن ....

هل من أجل هذا ، فقط ، كانت هذه المظاهرة الهادرة كموج البحر التى أستقبلت بها جماهير « سينما كايرو » محمد نجيب عندما اكتشفت وجوده بينها ؟

يقيني أنه كان لدى هذه الجماهير سبب آخر مختفى وراء هذه المظاهرة المادرة التي أستقبلت بها الرجل . فى تلك الأيام ، كانت أخبار الخلاف بين محمد نجيب و بين رفاقه الشبان أعضاء مجلس الثورة قد ذاعت .. وشاعت .. وأصبحت على كل لسان . وفى تلك الأيام نفسها ، كانت شعبية « جمال عبدالناصر » ماتزال مؤجلة . فلم تكن محاولة اغتياله فى ميدان المنشية قد وقعت . ولم يكن قد أمم قناة السويس . ولم يكن قد كسر احتكار السلاح . ولم يكن قد واجه العدوان الثلاثي . ولم يكن قد اضحى ثالث ثلاثة أطلقوا من « باندونج » مبدأ عدم الانحياز . ولم يكن قد بنى السد العالى . وفى الاجمال ، لم يكن قد حقق ، بعد ، أيا من انجازاته الكبرى التى صنعت له شعبيته وزعامته الهائلة . ومن هنا ، وجدتها جماهير الشعب ــ ممثلة فى جماهير « سينما كايرو » ــ فرصة لاتعوض للتعبير عن مشاعرها تجاه الرجل الذى لم تكن تعرف من وجوه « ثوار يوليو » غير وجهه . وربما أيضا لكى تقول ، و بصوت عال ، أنها تقف مع الرجل الذى عرفته .. وتحققت على يديه أخطر احلامها ، ضد أولئك الذين لم تعرفهم .

المهم ....

بدأ عرض « فيفا زاباتا » .. فاستولى على مشاعر الجماهير التى بقيت صامتة تماما ، ومحتفظة بهدوئها حتى بلغ الفيلم نهايته . وعندئذ تفجرت ، من جديد ، مشاعرها .. وراحت ، من جديد أيضا تملأ الجو هتافا بحياة محمد نجيب .

مر على هذا الحادث يومان . بعدهما ، مباشرة ، كنت على موعد مع «عبدالناصر» فى الصباح الباكر ، ببيته فى منشية البكرى . لم يكن قد تناول افطاره بعد . فدعانى الى مشاركته اياه ، وكان مكونا من « الفول المدمس » .. والجبن الأبيض .. والخبز الشامى « المقرمش » . و بينما نحن نأكل ، فوجئت بعبدالناصر يسألنى :

ـــ أنت كنت فى « سينما كايرو » أول امبارح . ؟

أجبته :

ـــ حصل ..

وسادت بيننا لحظة صمت ، سمحت لى بأن أتوقع أنه سوف يسألنى عن رأيى فى تلك المظاهرة الجماهيرية الهادرة التى أستقبل بها محمد نجيب فى دار السينما . لكن «عبدالناصر» لم يسألنى السؤال الذى توقعته . و بدلا منه ، قال لى كلاما وقع على رأسى وقوع الصاعقة.قال لى :

ـــ تعرف قالوا لى ايه . ؟

تساءلت :

ـــ من هم ؟

وبهدوء شديد .. ودون أن تبدو فى صوته أية نبرة موحية بما كان عنده ـــ قال :

ـــ موش مهم تعرف من هم .. المهم تعرف قالوا لى ايه . قالوا لى أن المظاهرة اللى استقبل بها « نجيب » خارج السينما وداخلها .. كانت كلها من تدبيرك . !!

قالها « عبدالناصر » ببساطة شديدة ، وأستمر يمضغ طعامه وكأنه لم يقل شيئا يفجر الدماغ . !!

أحتجت الى لحظات .. ألتقطت فيها أنفاسى . بعدها ، قلت له :

— لى رجاء عندك ..

تساءل :

— وهو .. ؟

قلت :

— أرجوك تطلب « وجيه أباظة » على التليفون الآن ، وأسأله : كيف .. وماهى الظروف التى ذهب فيها فلان الى « سينما كايرو » أول أمبارح .

سألنى مندهشا :

— ومادخل وجيه أباظة بهذه الحكاية ؟

— بل له كل الدخل ..

ومضيت احكى له حكاية ذهابى الى السينما من الألف الى الياء . وعندما بلغت نهاية الحكاية ، مد « عبدالناصر » يده الى علبة سجائره فأخرج منها واحدة أشعلها وجذب منها نفسا عميقا ، ثم سرح بعينيه الحادتين سرحة طويلة ، ومضى يردد لنفسه : « ياسلام على الناس وعلى اللى ممكن يعملوه فى بعضهم بالتقول والاختلاق » .

وسكت « عبدالناصر » للحظة . ثم قال موجها كلامه لى : « أنس .. أنس الحكاية دى .. أنساها خالص .. وتعالى نتكلم فى اللى أنت كنت جاى علشانه » .

ولم أستطع ، وقتها ، أن أنس الحكاية ، كما طلب مني «عبدالناصر» . ولا أنا نسيتها حتى الآن . بل أنني مازلت ، والى هذه اللحظة ، أسائل نفسي : ترى ... ماذا كان يمكن أن يحدث لولم تكن ظروف ذهابي الى «سينما كايرو» في ذلك اليوم ، هي هذه .. ولولم يكن هناك شاهد صدق مثل «وجيه أباظة» يعلم «عبدالناصر» — يقينا — أنه لم يكن مستعدا لان يكذب عليه لحسابي ، على الرغم من الصداقة التي تربطني به . ؟

نعم .. ماذا كان يمكن أن يحدث لوأن الأمور مشت في الطريق الخطأ ، ولم يفكر «عبدالناصر» أن يواجهني بما افتراه عليَّ المشاءون بالنميم . ؟

....

....

لقد كان لدى «عبدالناصر» ، حينذاك ، الوقت .. والصبر .. لكي يسأل ، ويتحقق ، ويستبين . ومن هنا ندرت أخطاؤه في حق نفسه .. وفي حق الآخرين . لكن الظروف كلها ، فيما بعد ، تحالفت ضده .. فسرقت منه الوقت ، والصبر ، وانتهت به الى الاستسلام للاسوار العالية التي أقامها (الآخرون) من حوله . فلم يعد يسمع الا بآذانهم ، ولم يعد يرى الا بعيونهم .. لم يعد يسأل ، أو يتحقق ، أو يستبين . ومن هنا كثرت الأخطاء التي وقع فيها ، والتي كان مستحيلاً أن يقع في شيء منها .. لولم يستسلم للآخرين ، فيرى بعيونهم .. ويسمع بآذانهم .

فبعد اثنتى عشر سنة من تلك (القصة) التى نقلت له عنى .. وكان فى مواجهته لى بها القضاء المبرم عليها ، وعلى كل ماكان محتملا أن يترتب عليها من آثار، نقل اليه (الناقلون) ــ ولست أجلهلهم ــ أننى قد تحديت (تعليماته) بعدم نشر تصريحاته فى مجلس الأمة يوم ١٨ مايو سنة ١٩٦٥ ــ وكنت ، وقتها ، رئيسا لتحرير جريدة « الجمهورية » . ولم تكن هذه (التعليمات) قد بلغتنى ـ أصلا ـ لكى أتحداها . لكنه بدلا من أن يسألنى ، أو يكلف من يثق بأمانته ليسألنى .. ولانه كان قد اصبح وليس لديه الوقت ولا الصبر اللازمان للسؤال وللتحقق .. ولأنه ، أيضا ، كان قد استسلم ــ و بالكامل ــ للأسوار العالية التى أقامها (الآخرون) من حوله .. فقد أصدر ، منفعلا ... ومتعجلا ، قراره بأعفائى من منصبى . !!

....

....

وتحضرنى فى هذا المجال ــ مجال حرص « عبد الناصر » ، فى مرحلة من حياته .. ومن حكمه ، على التثبت والتحقق مما ينقله اليه الناقلون ــ تحضرنى قصة رواها لى الصديق عباس رضوان ، وزير الداخلية والحكم المحلى السابق ، قال : (حينما كنت نائبا لمدير المخابرات العامة ، تجمعت لدى معلومات تقول أن مدير مكتب أحد الوزراء من أعضاء مجلس الثورة يخسر ، كل ليلة ، على موائد القمار مبالغ طائلة . وكان السؤال هو: من أين له هذا .. ؟!!

« وفى كل مرة قابلت فيه الرئيس ، كنت أحدثه فى هذه القضية وأطلب توجيهاته . فكان يستمع الى جيدا .. ثم يهز رأسه ولايقول شيئا .

وفى آخر مرة حدثته عنها ، قال لى : « أسمع ياعباس .. فى احدى المرات ذهب رجل الى سيدنا عمر شاكيا اليه من أن رجلا آخر فقأ له عينه . فقال عمر للرجل : أبق الى جانبى . وسوف أرسل من يأتى لى بالرجل الذى تتهمه بأنه فقأ لك عينك ، فربما تكون أنت قد فقأت له عينيه الأثنتين . فلا تتسرع يا عباس . بل تأن .. وترو .. وبخاصة اذا كان الأمر يتعلق بمستقبل الآخرين ومصائرهم » .

أن من حقك ، عزيزى القارىء ، أن تتوقف هنا للتسأءل : اذن .. ما الذى حدث ، فجعل نفس الرجل الذى كان ينصح بالتأنى .. وبالتروى — وبخاصة اذا كان الأمر يتعلق بمستقبل الآخرين ومصائرهم — يتخلى ، فيما بعد ، عن هذا المنهاج .. ويأخذ كثيرين بالشبهات .. وبأقوال لم تصدر عنهم .. وبآثام لم يقترفوها ؟ !

الذى حدث أن ظروفا كثيرة .. وأحداثا جساما .. تألبت عليه فسرقت منه ، كما قدمت ، الوقت والصبر اللازمين ، قبل أى شىء آخر غيرهما .. واكثر من أى شىء آخر غيرهما ، للتثبت .. وللتحقق .. ومن ثم ، تنازل — بارادته — لآخرين وثق بهم ، عن حقه فى التثبت والتحقق . ولم يكن هؤلاء — لسوء حظه .. وحظ الناس معا — أهلا لهذه الثقة . وترتب على ذلك ، بالضرورة ، أن جرى كل ذلك الذى جرى .

أما قبل ذلك .. قبل أن تحيط به أهوال جسام .. وقبل أن تتحالف ضده كل الظروف ، فتسرق منه الوقت والصبر .. وقبل أن ينجح (الآخرون) فى اقامة تلك (الأسوار العالية) التى أقاموها من حوله ،

وحالوا بها ــ وبحذق و براعة ــ بين (نور الحقيقة) و بين الوصول اليه .. فقد كان الرجل يستمع .. و يستمع .. و يبلغ من الصبر على الاستماع حدا لا يكاد يصدق . ولكى تزداد صورته هذه فى ناظريك تحددا ووضوحا ، .. أستأذنك فى أن أنقل اليك هذا (الحوار الغريب) الذى دار بينى و بينه ظهر يوم السبت الثالث والعشرين من مايو سنة ١٩٥٣ ، كما أثبته ــ بحروفه ــ فى مذكراتى الخاصة عن ذلك اليوم .

« كنت ، اليوم على موعد مع البكباشى جمال عبد الناصر أن ألقاه ، فى الصباح ، ببيته . لكننى حين ذهبت اليه فى الموعد المحدد . وجدته نائما . وعرفت أنه قد آوى الى فراشه فى الساعة السابعة من الصباح بسبب الأزمة التى أحدثتها جريدة (المصرى) . اذ كان رئيس تحريرها ــ الاستاذ أحمد أبو الفتح ــ قد أعد للنشر مقالا يرد فيه على الصاغ صلاح سالم ، ورأت السلطات أن المقال مما لا يمكن نشره ، وكانت أزمة حادة .. سهر « جمال » بسببها حتى الصباح .

وعندما أتصلت بجمال ، خلال النهار ، وجدته قد أستيقظ . وطلب منى أن أمر به فى المنزل . ومررت عليه فعلا فى الساعة الثانية ظهرا .

بدأ « جمال » حديثه معى بأن راح يروى لى تفاصيل أزمة جريدة (المصرى) . بعدها سألنى :

ــ ماذا يقول الناس عنا .. وما هو رأيهم فينا ؟
قلت :

ــ أنا واثق من أنك لا تريد منى أن أخدعك ، ولا أن أجاملك . ولذلك سأتكلم معك بمنتهى الصراحة . أن الرأى العام يحس كما لو كان يعيش

فى ظل فاشية عسكرية . لايستطيع أن يتكلم . ولايستطيع أن يتنفس . ولا يستطيع أن يقول رأيه فى شىء مما يجرى حوله .
قاطعنى « جمال » قائلا :

- ولكن .. ماهو السبب فى أن يستولى مثل هذا الاحساس على الناس . ؟

قلت :

- ربما يكون السبب ناشىء عن بعض الأخطاء ألتى تقعون فيها ، فيستغلها خصومكم ببراعة ضدكم .

تساءل « جمال » :

- أخطاء زى ايه ؟

قلت :

- زى تلك القصة التي تدور حول أحد أئمة المساجد . كان يلقى خطبة الجمعة ، فقال فى خطبته ان بعض ضباط القيادة بدأوا ينتهكون حرمة المساجد بالتصوير فيها . ثم ناشد الرئيس أن يوقف هذه التصرفات . وفات يوم الجمعة . وفى يوم السبت استدعى الرجل لمقابلة مدير المخابرات لسؤاله عما جاء فى خطبته عن الضباط .

وهذا شىء ما كان يجب أن يحدث ، لان المصلين جميعا وراء هذا الامام سوف يسمعون به ــ وقد سمعوا فعلا ــ وسيفسره كل واحد منهم حسب هواه . وسوف ينتهى هذا التفسير الى أن أحدا لا يستطيع أن يقول رأيا .. حتى خطباء المساجد .

فقال « جمال » :

- وهل ترى أن ماقاله هذا الخطيب ، كان يصح له أن يقوله على مسمع من المصلين . ؟

قلت :

— فلأسلم معك بأن هذا الخطيب كان مخطئا . فهل استدعاؤه الى ادارة المخابرات هو الطريق لاصلاح الخطأ ؟

قال .. « جمال » مستفسرا :

— أمال ..... ؟

قلت :

— لا .. ان الطريق ، فى رأيى ، أنه كان فى الامكان لفت نظر هذا الخطيب بواسطة رؤسائه فى وزارة الأوقاف .. دون ما ضجة يسمع بها أحد ، ولاسيرة يتداولها الناس ، ويستغلها خصوم الثورة لكى يجعلوا من الحبة قبة .

قال « جمال » :

— معك حق . ولكنك لم تقل لى من هو هذا الامام . ؟

قلت :

— أنا لاأعرفه . ولكننى سمعت بالحادث من مصدر لاأشك مطلقا فى صدق روايته . أما اذا أردت ان تعرف أسم الرجل ، فانك تستطيع أن تسأل عنه مدير المخابرات .

وانتقلنا ، بعد هذا الحديث عن امام المسجد ، الى الحديث عن الوزراء . فقلت لجمال :

— هل تعتقد أنه من مصلحة الثورة أن يفهم الناس أن الوزراء طراطير ؟!

ملأت الدهشة وجه « جمال » . وقال :

— وهل الناس فاهمين هذا .. ؟

قلت :

— نعم .. وعلى صورة تشبه اليقين . وأرجوك تسمع هذه القصة ، لكى

يتأكد عندك ماأقوله لك : كنت أشهد احتفال جريدة (الاهرام) بافتتاح مطابعها الجديدة ، عندما جاء الى صديق من ضباط البوليس ــ وهو الصاغ عبد الهادى نجم ــ وطلب منى أن اكتب مطالبا بالافراج عن جنود بلوكات النظام الذين سجنوا فى أعقاب حادث حريق القاهرة . وكانت وجهة نظر هذا الضابط ان الحادث يعتبر سياسيا . . وان الدول بدأت فى العفو عن جميع المسجونين السياسيين ، فلا أقل من أن تفرج عن هؤلاء الجنود . فقلت له : من ناحيتى .. أنا مقتنع بوجهة نظرك . لكننى ــ كنقطة نظام ــ أحب أن أسأل رجال الحكومة عن رأيهم فيها . وبينما نحن فى الحديث ، دخل الى سرادق الاحتفال الاستاذ سليمان حافظ وزير الداخلية . فقلت للضابط : ها هو وزير الداخلية قد حضر . وأستطيع أن أسأله رأيه فى هذه المسألة . فقال ، وهو يبدى بيده اشارة تدل على مدى استهانته بشأن الوزير : «ياعم ... هم دول وزرا . دول كتبه عموميين .. اذا كنت عايز تسأل .. أسأل «جمال» أسأل «صلاح» .. أما الوزرا فسيبك منهم لانهم مايعرفوش حاجة» !!

هذه قصة . وقصة أخرى تؤكد على أن هذا الفهم مستقر تماما فى عقول الناس : لى قريب «كونستابل» فى ادارة الجوازات ، تقرر نقله الى أسوان . وجاءنى يقول انه مظلوم لانه قادم من الصعيد من ستة أشهر فقط ، بينما هناك من زملائه من لم يغادروا القاهرة منذ سنوات . فقلت لهذا القريب : جهز شكوى بظلامتك هذه ، وأنا على استعداد لان أقدمها لوزير الداخلية . فكان جوابه : أنا أفضل أن تقدمها لليوزباشى كفافى (مندوب القيادة فى وزارة الداخلية) لأنه هو وزير الداخلية الحقيقى . !!

فقال «جمال» :

— وهل تظن أننا المسئولون عن قيام مثل هذا الفهم عند الناس ؟

قلت :

— نعم .. انتم المسئولون .
وبدون أن تبدو على وجه «جمال» أية علامة لنفاد الصبر، أوالضيق بما كنت أقوله له . قال :

— كيف تظن هذا .. ونحن نؤكد للوزراء ، فى كل مناسبة ، أنه ليس هناك مسئولية بدون سلطة . وأنهم لكى يستطيعوا أن ينهضوا بمسئولياتهم ، فان عليهم أن يباشروا سلطاتهم على أوسع نطاق .
قلت :

— ولكن الواقع شيء آخر تماما .
قال :

— وكيف تأتى هذا الواقع ؟
قلت :

— لنضرب المثل ، مرة أخرى ، بوزارة الداخلية . وتسمح لى أسألك : ما لزوم ضباط الجيش .. كفافى وزملاؤه للبقاء فيها حتى هذه الساعة ؟
قال :

— انهم موجودون فيها كضباط اتصال بينها وبين ادارة أمن الدولة — وهى تابعة لرئيس الدولة مباشرة .. وليس لوزارة الداخلية — ومهمة هؤلاء الضباط هى أن يقدموا لوزارة الداخلية المعلومات التى يهمها أن تقف عليها .
قلت :

— أنت تعتبر أن مهمة هؤلاء الضباط هى أن يقدموا لوزارة الداخلية المعلومات التى يهمها أن تعرفها عن الهيئات والافراد . أما الحقيقة

الواقعة فهى أن هؤلاء الضباط يتدخلون فى كل شىء فى الوزارة، وكان من نتيجة هذا أن أستقر فى ذهن واحد من ضباط البوليس أن وزير الداخلية ماهوالا (كاتب عمومى) . !! بينما استقر فى ذهن قريبى الذى حدثتك عنه، أن اليوزباشى كفافى، مندوب القيادة، هو (وزير الداخلية الحقيقى) .. وليس سليمان حافظ نائب رئيس الوزراء . !!

قال «جمال» :

— يهمنى أن أعرف من المسئول، فى نظرك، عن قيام مثل هذا الفهم عند الناس ؟

قلت :

— المسئول فى نظرى أمران .. الأمر الأول هوتواجد هؤلاء الضباط فى هذه الأماكن . الأمر الثانى هو «ضعف النفوس» . فبعض رجال وزارة الداخلية — على سبيل المثال — بنفوسهم ضعف جعلهم يقدمون على تملق ضباطك باعتبارهم (مندوبى القيادة) ومن شأن هذا التملق أنه يغرى هؤلاء على المزيد من التدخل فى أعمال الوزارة، وفرض سلطانهم عليها، مما يضعف هيبة جميع رجالها . لافرق فى ذلك بين ضعاف النفوس منهم وبين الأبرياء من مثل هذا الضعف .

— قال :

— .... والعلاج ؟

قلت :

— العلاج هوأن يسحب (مندوبوالقيادة) من كل الوزارات التى لكم فيها مندوبون، ويمنح الوزراء كل امكانيات العمل .. وكل حرية

التصرف .. ثم يحاسبون ، بعد ذلك ، عن أى خطأ .، وعن أى تقصير يقعون فيه .

قال « جمال » :

— عظيم .. وماذا عندك غير هذا ؟

قلت :

— عندى موضوع الخطب والأحاديث التى أصبحت تصدر عن أعضاء مجلس القياده .

قال متسائلا :

— ماهيا .... ؟

قلت :

— لقد زادت فى الآونة الاخيرة عن الحد المعقول . وأصبح الناس يظنون أنكم أصبحتم تتسابقون على الشهرة . هذا فضلا عن أن هذه الأحاديث والخطب لاتأتى متسقة مع بعضها ، بل كثيرا مايحدث بينها تناقض يوقع الناس فى حيرة ، ويجعلهم يشعرون أن ارائكم ليست واحدة .. مما يجعل القلق يستولى عليهم . لأن الأصل فى ثقة الناس بكم هو شعورهم بانكم رأس واحدة تحملها اكتاف ١٢ رجلا . ومن شأن ايمانهم بانسجامكم وبوحدتكم . ان تظل ثقتهم فيكم قوية .. وان يبقى ايمانهم بكم راسخا . أنهم يعتقدون أن كل ضربة تأتيكم من الخارج تقويكم .. و..

وهنا قاطعنى « جمال » مستفسرا :

— أن أيه ... ؟

فأعدت عبارتى :

— ان كل ضربة تأتيكم من الخارج تقويكم. ولن يضركم الا ضربة تأتيكم من بينكم .

قال :

- وهل تظن أننى لم ألاحظ كل هذا الذى قلته ؟

قلت :

- اذن .. فلماذا لاتقول لهم ؟

قال :

- لانهم سوف يظنون أننى أريد أن أستأثر، دونهم ، بحق الخطابة .. أوحق الكلام .

قلت :

- ولكن المسألة أخطر من أن يوقفك عن معالجتها احتمال قيام مثل هذا الظن بك .

- قال :

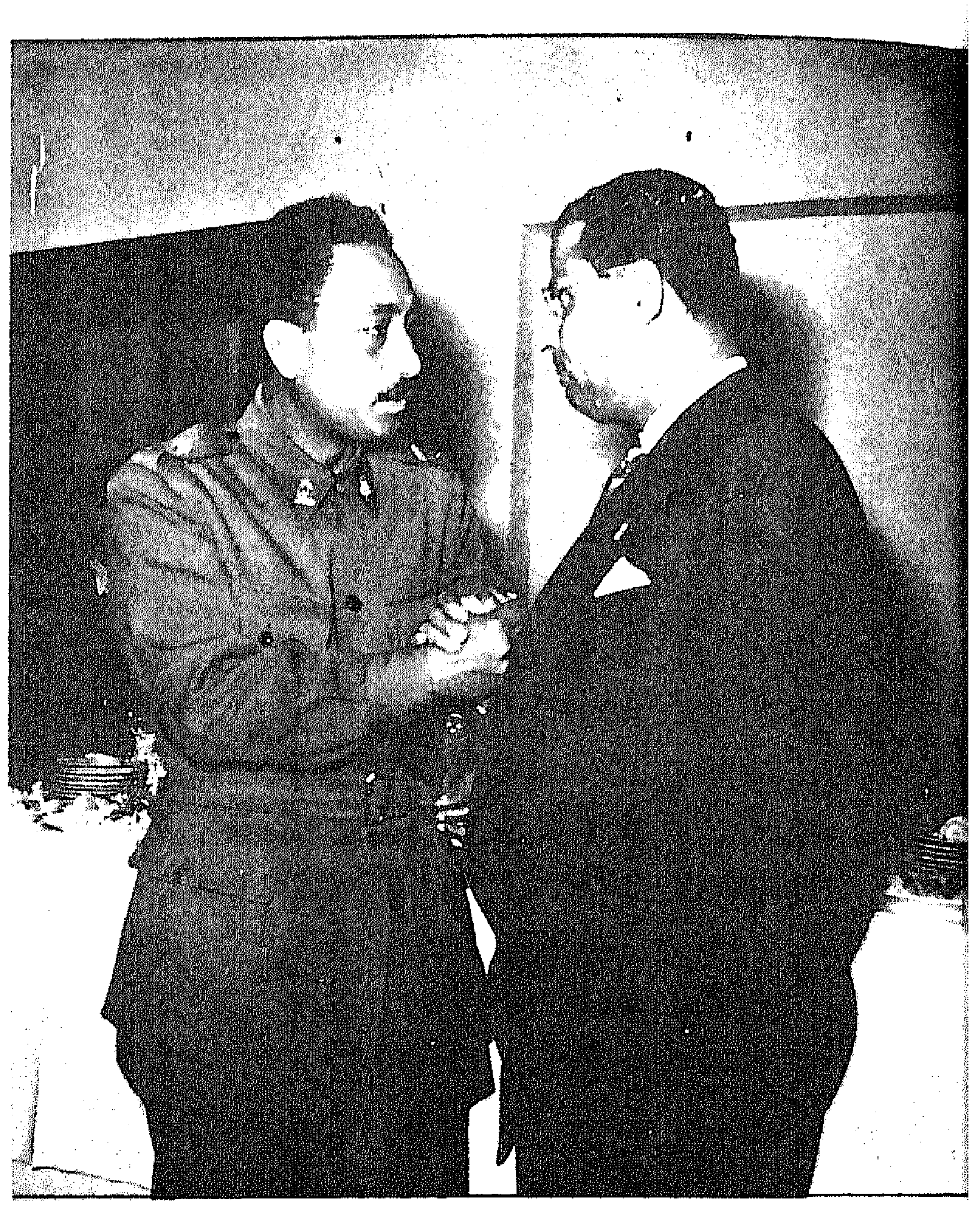
- سيأتى الوقت .. وسوف ترى أن الزمن كفيل باصلاح كل شىء .

....

....

وجاء الوقت كما قال .. ولربما يكون الوقت قد جاء متمهلا . لكنه جاء . وأخذ « الرفاق » ينسحبون من تحت الأضواء واحدا بعد آخر. بعضهم صفق باب مجلس الثورة بأقصى العنف وهو يغادره لآخر مرة . وبعضهم أغلق الباب وراءه ، وبكل الهدوء والرفق ، وكأنه كان حريصا على أن لايؤذى الباب الذى تعامل معه لسنين طالت أو قصرت . وبعضهم شاء أن يحدث « فرقعة » بلغت أسماع كل الناس ، فى كل الشارع المصرى .. وأيضا فى كل الشارع العربى . وذلك

طبيعى . اذا أنهم ــ كما سبق وقلت فى مقدمة هذا الكتاب ــ كانوا بشرا .. ولانهم كانوا بشرا .. فقد كان لكل منهم خصائصه وصفاته .. وكان لكل منهم طريقته واسلوبه .. كانت لبعضهم قدرة خاصة على التعامل مع الجراح واحتمال آلامها .. بينما لم يتوفر للبعض الآخر شيء من هذه القدرة ، فكانت صيحة التألم من الجراح أقوى من أن يستطيعوا كتمانها . ومهما يكن من أمر ، فلقد كانت النتيجة واحدة . تفرق الصحاب ــ وكان حتما أن يتفرقوا ــ وذهب كل منهم فى طريق . ولكن .. سوف يبقى منهم ــ على الرغم من أى اختلاف للرأى فى أشخاصهم وفى تصرفاتهم ــ أنهم جميعا وضعوا ، ليلة الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، أرواحهم على أكفهم . وخرجوا من بيوتهم لا يلوون على شيء ، ولا يستهدفون شيئا ، الا أن يخلصوا مصر من فساد كان قد استبد بها ، وأخذ بخناقها ، ولم يكن هناك ثمة ذرة من أمل لتخليصها من ذلك الفساد الا بثورة ترد اليها كرامتها وعزتها ، وتعيد الى قلب كل مصرى أمله المفقود فى غد أكرم وأفضل . وبهم ، وعلى أيديهم ، جاءت هذه الثورة التى نمت .. وتطورت .. وأصبحت ــ تاريخياً ــ واحدة من أعظم ثورات العصر أثرا .. وتأثيرا .



فى ١١ إبريل سنة ١٩٥٣ .. وفى إحدى الحفلات التى أقامتها مجلة (المصور) ـ التقطت هذه الصورة التى تجمع بين الكاتب .. و(البكباشى) أنور السادات عضو مجلس الثورة

الفصل الرابع :

السادات : صداقة من خلال القضبان !

بدأت علاقتى بالرئيس السابق أنور السادات عبر قضبان (قفص الاتهام) فى محكمة الجنايات . رأيته ، من مقاعد الصحفيين فى تلك المحكمة ، جالسا وسط حشد من الشبان المتهمين بنفس تهمته : الا تفاق على قتل الوزير السابق .. ورجل الانجليز (رقم/واحد) فى مصر : أمين عثمان .

وللحقيقة والتاريخ : لم يكن السادات هو المتهم (رقم واحد) فى هذه القضية ، كما قال فى حديث له مع (التليفزيون الاسترالى) نشرته جريدة (الاهرام) فى عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٩٨٠ . وانما كان السادات هو (المتهم السابع) فى قائمة المتهمين . أما/(المتهم الأول)/فكان المرحوم حسين توفيق .

كان أنور السادات فى هذه القضية هو أكبر المتهمين سنا ــ ٢٧ سنة ــ كما أنه الوحيد بينهم الذى كان قد أتم تعليمه . فتخرج من الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ ، واستمر فى صفوف الجيش حتى بلغ ، فى سنة ١٩٤٢ ، رتبة اليوزباشى (النقيب الآن) . وعندئذ ساقته المشاعر

الوطنية التى كانت قد ساقت ، قبله ، كثير ين من أنداده وأقرانه ، ومن غير أنداده وأقرانه ، الى الانتقال من مجرد الكراهية لقوات الاحتلال الانجليزى ، الى العمل الايجابى ضد هذا الاحتلال .. ورموزه .. وأعوانه .

ولأن الانجليز، فى ذلك الوقت ، كانوا يتسلطون على كل مقومات حياتنا : على الجيش ، والبوليس ، والحكم ، والقصر الملكى نفسه ــ فقد كان صعبا ، ان لم يكن مستحيلا ، بالنسبة للسادات أن يظل مستخفياً عن عيونهم ، أو بعيداً عن أيديهم .. فسرعان ما اكتشفوا أمره ، وسرعان ما أتخذوا ضده اجراءاتهم . فاستبعدوه من صفوف الجيش . وأصبح ، بين يوم وليلة ، مطاردا من أذنابهم .. ومن جواسيسهم وعيونهم .

وظل السادات يتراوح بين اعتقال وحر ية .. وحر ية واعتقال .. حتى ظهر (فى الصورة) مرة أخرى بوصفه المتهم (رقم/٧) فى قضية التدبير لاغتيال أمين عثمان رجل الانجليز (رقم/ واحد) .

كانت هذه (الخلفية السياسية) التى ميزت السادات على أقرانه من الشبان المتهمين فى تلك القضية ــ بما فيهم المتهم الأول نفسه ــ ماثلة امام عينى ، وانا جالس فى صفوف الصحفيين أتابع مسار المعركة المحتدمة بين ممثلى الدفاع وممثلى الاتهام . وأفكر فى ذات اللحظة : كيف أخرج من هذا المتهم (ذى الخلفية السياسية المميزة) ، بعمل صحفى أنفرد به .. ولا يشاركنى فيه غيرى من الزملاء ؟

وان هى الا لحظات حتى أطلت (الفكرة) برأسها : يكتب (للمصور) مذكراته الخاصة عن الشهور الثلاثين التى قضاها بين جدران السجن .

ولكن .. هل يقبل .. ؟

واذا قبل هو .. فهل يقبل أصحاب (المصور) ؟

واخترت أن أبدأ بأصحاب (المصور) .. حتى اذا رفضوا الفكرة ، لم يوقعنى هذا الرفض فى شىء من الحرج معه .

عرضت الفكرة على الأستاذ اميل زيدان ــ أحد صاحبى (المصور) ــ وكان أستاذا عظيما .. ذا حس صحفى وهاج ، فقبلها على الفور . واتفقنا ، فى نفس الوقت ، على الأجر الذى سوف ندفعه للسادات مقابل أن يخص (المصور) بمذكراته : عشرة جنيهات عن كل حلقة .. بعملة تلك الأيام .

ومن خلال قضبان (قفص الاتهام) ، فى جلسة تالية ، عرفت السادات بنفسى .. وعرضت عليه فكرتى ، مقترنة بقيمة الأجر الذى سوف ندفعه له .

تهلل السادات فرحا .. وقال : « سوف أبدأ فورا » . ثم سأل :

ــ ولكن .. كيف سأوصل لك هذه المذكرات ؟

قلت :

ــ سوف آخذها منك هنا . تعطينى حلقة فى كل جلسة من جلسات المحكمة . لكننا سوف لانبدأ فى النشر الا بعد أن تصدر المحكمة

حكمها . فهكذا قرر الأستاذ اميل زيدان . فاذا حكمت المحكمة ببراءتك بدأنا فى النشر فورا . اما اذا جاء الحكم بادانتك فاننا سوف لاننشرها ، بغض النظر عن تقاضيك لأجرك مقدما .

ووفى السادات بوعده . فكان يعطينى فى كل جلسة من جلسات المحكمة حلقة من مذكراته . وكنت ، بدورى ، أعطيه أجر الحلقة السابقة عليها .

وقبل أن يصدر الحكم فى القضية ــ كان قد اكتمل عندى خمس حلقات من مذكرات السادات . فلما أن صدر حكم المحكمة ، فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٤٨ ، ببراءته من التهمة المنسوبة اليه ، بدأنا نشر أولى حلقات هذه المذكرات فى أول عدد صدر من (المصور) بعد صدور الحكم ، وكان بتاريخ ٣١ يوليو سنة ١٩٤٨ . وكتبت مقدمة الحلقة الأولى .. وقدمت فيها المذكرات .. وكاتبها (اليوزباشى أنور السادات) الى قراء (المصور) .

أما الحلقة السادسة ، والأخيرة ، من تلك المذكرات .. فقد كتبها السادات فى (لوكاندة) صغيرة بحلوان كان قد آوى اليها بعد خروجه من سجنه . وقد أحضرها لى بنفسه فى (دار الهلال) . ونشرت فى عدد (المصور) الذى صدر بتاريخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

وفى هذا اللقاء .. حدثنى السادات عن أمله فى أن أجد له (فرصة عمل) فى (دار الهلال) . فوعدته بأن احاول . وبالفعل .. تحدثت مع الأستاذ اميل زيدان فى أمر اشتغال السادات معنا .. ففكر الرجل للحظة ، ثم سألنى :

ـ يشتغل ايه معنا .... ؟

قلت :

ـ معيداً للصياغة Rewriter فنحن فى حاجة لشخص يقوم بهذا العمل .

قال :

ـ وهل هو قادر على مثل هذه المهمة ؟

قلت :

ـ فلنجربه . فاذا نجح كان بها ، واذا لم ينجح استبدلناه بغيره .

قال :

ـ وماهو الراتب الذى تقترح أن نعطيه له ؟

قلت :

ـ خمسون جنيها ...

فنظر الىّ اميل زيدان نظرة فيها شيء كثير من الدهشة . وقال : ل :

ـ أليس هذا كثيرا بالنسبة لشخص يعتبر مبتدئا فى هذا المجال ؟

قلت :

ـ لاتنسى سيادتك انه كان ضابطا . وهذا المبلغ ، فى رأيى ، هو أقل مبلغ يمكن أن نعطيه له ، و يأتى متفقا مع ماكان له من وضع سابق . والرأى لك أولاً واخيراً .

فكر اميل زيدان قليلا . ثم قال :

ـــ موافق .. أدعوه ليتسلم عمله من الغد تحت اشرافك . (وكنت ، وقتها ، سكرتيرا للتحرير) .

وجاء السادات .. وأنضم الى اسرة (المصور) .. وبقينا نجلس معا فى غرفة واحدة .. وعلى مكتبين متقابلين .. لعدة شهور ـــ لا أتذكر بالضبط عددها ـــ تركنا بعدها لكى يعود الى (طريق المقاولات) مع صديقه .. ورفيق عمره .. قائد الأسراب حسن عزت الذى كان قد أستبعد من سلاح الطيران فى نفس الوقت الذى استبعد فيه السادات من الجيش .. وأيضا لنفس الأسباب .

على أن أغرب مافى تلك القصة ـــ قصة التحاق السادات بالعمل فى (دار الهلال) ، على بساطتها .. وربما أيضا على تفاهتها ، أنه رواها ثلاث مرات .. بثلاثة أشكال مختلفة !! وكان حريصا ، فى كل مرة من هذه المرات الثلاث ، على إسقاط أى دور لى فيها . لماذا ... ؟ لم أفهم ، وقتها ، ولا أنا فهمت حتى الآن .

فلقد روى السادات هذه القصة فى صفحة ١٢٩ من كتابه (البحث عن الذات) بالشكل الآتى :

« ... انتقلت بعد ذلك الى بنسيون بوسط البلد بالقاهرة .. عاطلا بدون عمل ، بينما تتراكم على الديون يوما بعد يوم .. فذهبت الى احسان عبد القدوس ـــ وهو صديق قديم لى ـــ ليبحث لى عن عمل . قصدنا جريدة (الاهرام) ولكن لم تكن بها مجالات للعمل ، فاقترحت

(روز اليوسف) . ولكن احسان قال أن روزا لا تتحملنا نحن الاثنين !!

*** ملحوظة للكاتب : يريد السادات هنا أن يقول أنه كان له ثقل احسان عبد القدوس ووزنه كصحفي وكاتب . وبالتالى ، فان (روز اليوسف) لا تستطيع أن تحتملها معا . (!!!) .**

..... ونستمر مع السادات فى روايته :

« وكان احسان وقتها يعمل بروز اليوسف ، و بدار الهلال كمعيد للصياغة Rewriter . وأيضا فى جريدة (الزمان) .. ثلاثة أماكن فى وقت واحد .

*** ملحوظة ثانية : لم يحدث أن عمل احسان عبد القدوس بدار الهلال كمعيد للصياغة . وما كان احسان ليقبل على نفسه ، ولا على مكانته ووزنه ككاتب وصحفى لامع ، أن يعمل (معيدا للصياغة) . والصحيح أن احسان ، فى تلك الفترة ، كان يعمل كاتبا بمجلة (الاثنين) ، وكان يحرر بها بابا أسبوعيا تحت عنوان : (واحد + واحد = اثنين) . ونستأنف السير ، مع رواية السادات :**

« ولكن حدث أن استغنى احسان عن عمله بدار الهلال . فأخذنى وقدمنى لأصحابها الذين اشتروا منى مذكراتى التى كتبتها فى السجن ، و بدأوا نشرها . و يبدو أنهم أرادوا اختبارى للتأكد من أن المذكرات بقلمى . فأتانى شكرى زيدان ، أحد صاحبى دار الهلال ، واشار الى جزء من المذكرات وقال انه فى حاجة الى تطويل بما يساوى عامودا

ونصف ، فقلت : بكل سرور. قال : اليك المكتب . ولكن عليك أن تنتهي من الكتابة فى خلال ساعة ونصف .. وهو الزمن الباقى على اغلاق المطبعة .

« فعلت ماطلبه . وسلمته اليه قبل الزمن المحدد . فقرأه وشكرنى وأنصرف .

« لم يخامرنى أى شك فى أن هذا كان نوعا من الاختبار.. الى أن أرسل فى طلبى صباح اليوم التالى ، وطلب منى أن أعمل معهم فى (دار الهلال) بصفة مستديمة .. وأن أحدد بنفسي المرتب الذى أريده .

« كان هذا أمرا مذهلا لى ، فقد كنت أعرف أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعا بالقطعة . قبلت العمل ، على الفور ، وأخذت مكان احسان كمعيد للصياغة » .

* .. ملحوظة ثالثة : لم يحدث فى تاريخ (دار الهلال) ، منذ انشائها .. والى أن أممت ، أن ترك أصحابها لشخص يريد أن يعمل معهم ــ حتى لو كان هذا الشخص هو العقاد أو طه حسين ــ أن يحدد بنفسه المرتب الذى يريده . هذا بافتراض أن باقى أجزاء هذه الرواية صحيحا . وهو ليس صحيحا ، جملة وتفصيلا ، كما سوف نتبين ، الآن ، من الرواية الثانية التى رواها هو بنفسه .. فى مجلة (اكتوبر) بعددها رقم ٥٤ الصادر بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٧٧ . وتحت عنوان : (.. ولم أجد لى مكانا فى أية مؤسسة صحفية) .

قال السادات :

« ... وخطر لي أن أشتغل بالصحافة . فقد كنت صحفيا . والصحافة قريبة من نفسي .. فهي اشتغال بالسياسة أو اقتراب من ذلك . وهي صناعة التعبير عن الناس والتأثير فيهم ، ثم أن عندى ما أقوله . فقد كنت معروفا فى ذلك الوقت ، فقد شاركت فى قضية أمين عثمان ، كما هو معروف ، وكتبت عنى الصحف الكثير . ثم أن صناعتى الكتابة والخطابة .. أى صناعة الكلام » !!!

* ... ملحوظة رابعة : فى هذه الفقرة ، يقول السادات :

« أن صناعته كانت الكتابة والخطابة » والمعروف للكافة أنه كان (ضابطا) .. ومن المعروف ــ للكافة أيضا ــ أنه ليس ثمة علاقة قريبة أو بعيدة .. بين العسكرية وبين الكتابة ، والخطابة ، وصناعة الكلام .

ونمضى معه فى بقية روايته :

« ... وذهبت الى صديقى احسان عبدالقدوس . وكان الكاتب السياسى الأول فى مصر فى ذلك الوقت ، وقلت له : يا إحسان ..

قال : نعم

قلت : أريد أن أعمل فى روز اليوسف .

فكان رده : أن روز اليوسف لاتتسع لنا نحن الاثنين . فسألته ان كان ممكنا أن أعمل فى (الاهرام) ، وطلبت اليه ان يتصل بكامل الشناوى الذى اعتذر لاحسان بأنه لامكان لى فى (الاهرام) .

« وذهبت الى (دار الهلال) أسأل : أن كان من الممكن أن أعمل بها ؟

وقابلت شكرى ز يدان ، أحد صاحبى دار الهلال . وقال لى الرجل أنه على استعداد لأن أعمل فى المصور . وأخبرنى أنه فى دار الهلال لا يوجد سوى كاتب كبير واحد هوفكرى أباظة .. وأنه فى حاجة الى أن أكون بجواره (!!!) .

* .... ملحوظة خامسة : بعد أن وضع السادات نفسه ، فى الرواية الأولى ، فى وزن .. وثقل .. احسان عبد القدوس كصحفى وكاتب .. وانه ، من أجل هذا ، قال له احسان : « ان روز اليوسف لا تحتملنا نحن الأثنين » نجده فى هذه الرواية ، وقد وضع نفسه فى وزن .. وثقل .. فكرى أباظة ككاتب كبير كان له فى ميدان القلم ، وقتها ، عمر السادات كله ؟؟ وأنه ، من أجل هذا أيضا ، قال له شكرى ز يدان أنه يحتاجه لكى يكون بجوار فكرى أباظة (!!!) ثم أننا فى هذه الرواية ، نجده قد ناقض نفسه تناقضا صارخا . فبعد أن كان احسان ، فى الرواية الاولى ، هو الذى اخذه وقدمه لأصحاب دار الهلال .. أصبح هو ، فى الرواية الثانية ، الذى ذهب (بنفسه) الى دار الهلال لكى يسأل : ان كان من الممكن أن يجد عملا بها !!!

و بعد أن كرر السادات ، فى هذه الرواية ، حكاية (الاختبار) الذى عقده له شكرى ز يدان لكى يتأكد ، من خلاله ، انه هو الذى

كتب مذكراته بنفسه ، وأن احدا غيره لم يكتبها له ، استأنف روايته قائلا :

« .. ثم بدأ شكرى زيدان يتحدث معى عن المكافأة . وفهمت منه أنهم يربطون ميزانيتهم فى شهر ديسمبر . وانهم ، بعد هذا الشهر ، لايعينون أحدا . وقد جئت بعد الموعد المحدد . ولم يعجبني ما عرضوه على . وهكذا أنسدت فى وجهى كل ابواب العمل .. أوالامل فى العمل » !!

* ملحوظة سادسة : فى هذه الرواية .. نستطيع أن نلاحظ أن السادات لم يناقض نفسه تناقضا صارخا وحسب . وانما نجده قد نسف أهم ماقاله ــ وبنفسه ايضا ــ فى الرواية الاولى ... فبعد أن كان شكرى زيدان هو الذى أرسل فى طلبه ، صباح اليوم التالى للقائه به برفقة احسان ، وطلب منه أن يعمل معهم بصفة دائمة .. وان يحدد (بنفسه) المرتب الذى يريده !! وأن هذا كان أمرا مذهلا بالنسبة له ، جعله ــ على حد قوله ــ (يقبل العمل ، على الفور ، ويأخذ مكان احسان عبدالقدوس كمعيد للصياغة) اذا به ، فى هذه الرواية ، يدير ظهره تماما لكل ذلك الذى سبق له أن قاله .. ويقول لنا ، بدلا منه ، شيئا مختلفا كلية من ألفه الى يائه !! انه يقول هنا أن شكرى زيدان بدأ يحدثه فى أمر المكافأة .. وان ماعرضه عليه لم يعجبه .. وأنه ، لهذا ، ترك (دار الهلال) وقد أنسدت فى وجهه كل أبواب العمل أوألامل فى عمل . بعد اذ (لم يجد له مكانا فى أية مؤسسة صحفية) !!

وهكذا نسف السادات فى (اكتوبر) كل ماكان قد قاله حول هذه القصة فى كتابه (البحث عن الذات) . فلا احسان ــ حسب هذه

الرواية ـــ قدمه لأصحاب دار الهلال . ولا هو أخذ مكان احسان كمعيد للصتياغة . ولا أصحاب دار الهلال طلبوا منه أن يحدد المرتب الذى يريده ولا هو عمل ، أصلا ، فى دار الهلال !!

أما (الشكل الثالث) .. أو (السينار يو الثالث) الذى وضعه السادات لهذه القصة التى يبدو أنها قد شغلت فكرة طويلا .. وحيرته طويلا ، فكان فى مجلة (الاثنين) التى كانت تصدر عن دار الهلال .. فى عددها رقم ١٠٤٣ الصادر فى ٧ يونيو سنة ١٩٥٤ . قال :

« ... وفجأة دخلت صاحبة البنسيون .. فانكمشت فى ملابسى ، وقد خشيت أن تكون قد جاءت تريد نقودا أو تطلب ملابسى لكيها ، وكانت قد ضايقتنى بهذا الطلب السخيف كثيرا . ولكنها قالت لى أن أحد أصدقائى يسأل عنى فى الخارج .

« وقمت اليه ، فورا ، واستقبلته بالعناق والأشواق .. و بعدها جلس يقول لى :

ــ ياشيخ .. فى دار الهلال بيدوروا عليك علشان تشتغل وتكمل كتابة مذكراتك . « أشتغل .. ؟!!

« وقبل أن أرد عليه ، كنت قد أرتديت ملابسى وأنا أمنى نفسى بالفرج .

« وأسرعت بالنزول مع الصديق . وفى الطريق أخبرنى أن دار الهلال حاولت أن ترسل لى أجرى عن الجزء الذى نشر من المذكرات . ولكنها لم تعرف عنوانى . !!

* ملحوظة سابعة : لم يقل لنا السادات كيف ذهبت المذكرات الى دار الهلال .. وكيف ــ اذا كان هو الذى قدمها لهم بنفسه ــ لِمَ لم يترك لديهم عنوانه لكى يرسلوا اليه أجره . وكان وقتها ــ كما يقول ــ فى أشد الحاجة الى كل قرش .. بل والى كل مليم ؟!

.... ونترك السادات يكمل :

« وتأكدت أنها فرجت اليوم . فانطلقت استدعى تاكسى ركبته حتى وقف بى أمام دار الهلال « حيث استقبلنى البواب العجوز وهو يهز رأسه قائلا :

ــ ياأفندم النهاردة الأحد .. مافيش حد موجود !!!

* ملحوظة للكاتب : حدث هذا كله .. والصديق القادم من دار الهلال لا يعلم أنها لا تعمل يوم الأحد !!

وهكذا جاءت هذه الرواية الثالثة .. أو (السينار يو) الثالث لنفس القصة .. مناقضا ــ و بالكامل ــ للروايتين السابقتين . وخاليا ، تماما ، من كل التوابل التى أضفاها السادات على كل منهما .

لماذا ، اذن ، جاءت الرواية ، هذه المرة ، غاية فى الاقتضاب .. وخالية ، تماما ، من كل التوابل .. التى أضفاها ، و بلا أى تحفظ ــ على روايتيه السابقتين ؟

أقول لك :

* أولا ــ فى سنة ١٩٥٤ . كان كل الناس مايزالوا موجودين على (المسرح) كان اميل زيدان موجودا .. وكان شكرى زيدان موجودا .. وكان كل الذين يعرفون كيف جاء السادات الى دار الهلال ، ومن الذى جاء به اليها ، موجودين . ومن هنا كان صعبا على السادات ، ان لم يكن مستحيلا ، أن يستخدم ــ فى وجودهم ــ ذلك (الخيال الصارخ) الذى أستخدمه فى روايتيه السابقتين .

* ثانيا ــ فى سنة ١٩٥٤ كان السادات مجرد عضو فى مجلس قيادة الثورة وكان تصحيحه ــ اذا ماحاد عن طريق الحق .. والحقيقة ــ واردا وممكنا . اما فى (اكتوبر) سنة ١٩٧٧ ، وكذلك فى (البحث عن الذات) سنة ١٩٧٨ ــ فان كل أولئك الناس كانوا قد اختفوا من على (المسرح) ... وكان هو قد صار (رئيسا) من حقه أن يقول مايشاء كيفما يشاء .. وأضحى تصحيحه ــ اذا ماحاد عن طريق الحق .. والحقيقة ــ ليس وارداً ، ولا ممكنا .. بل لعله كان قد أضحى رابع المستحيلات !!

....

....

تخلى السادات عن عمله فى (المصور) بعد عدة شهور قضاها جالسا معى فى غرفة واحدة . وعاد الى (طريق المقاولات) الذى كان قد بدأه مع صديقه حسن عزت وقبل دخوله السجن متهما بالاشتراك فى اغتيال أمين عثمان ــ وتباعدت بيننا ، تبعا لذلك ، فرص اللقاء .. فلم ألقه ،

خلال سنوات ثلاث سابقة على الثورة ـ عاد خلالها الى الجيش .. وأخذ مكانه بين الضباط الاحرار ـ غير مرة أو مرتين .. وكان ذلك فى بيت حسن عزت . فلما أن قامت الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ صرنا نلتقى يوميا تقريبا : اما فى مقر مجلس قيادة الثورة بكوبرى القبة .. واما فى بيتى الذى كان يقع فى منشية البكرى على بعد خطوات من مجلس الثورة ، فكان هذا عاملا مشجعا له لكى يجيىء الى بيتى بين يوم وآخر .. فيتناول غذاءه معى .. و يأخذ حصة من نوم القيلولة ـ وكان شديد الحرص عليها ـ ثم يقفل راجعا الى مقر مجلس الثورة .

وظل هذا هو حالنا معا الى أن عينه عبد الناصر مديرا عاما لدار التحرير التى أوكل اليها اصدار جريدة (الجمهورية) .

فى هذه الحقبة الزمنية نفسها .. كانت العلاقات بينى و بين أصحاب (المصور) قد بدأت تسوء . اذ كنت ، من ناحيتى ، ما أزال محتفظا بحماستى مشتعلة للثورة .. بينما كانوا هم قد بدأوا يدخلون مرحلة التحفظ تجاهها . ومن ثم ، أخذوا يمارسون معى نوعا من التضييق لم يكن ينقصه الأدب ولا الكياسة . الا أنه ، بالنسبة لى ، كان ملموسا ومحسوسا . تغابيت لبعض الوقت . واحتملت لبعض الوقت . لكننى ، فى النهاية ، لم أستطع أن أمضى الى أكثر مما مضيت فى التغابى والاحتمال ، وأستقر رأيى ، فيما بينى و بين نفسى ، على أن اترك (المصور) .

وذهبت الى عبد الناصر لأخبره بما قد أستقر عليه رأيى . فقال لى : أنه لا يحبذ أن أترك (المصور) فى الوقت الحاضر ، لأنه لا يعلم هوية من

سوف يتولى ادارة التحرير فيه بعد أن أتركه . فقد يكون شخصا مواليا للثورة ، وقد لا يكون . (وفى الحالة الأخيرة .. سأجد نفسى مضطرا لأن أضرب .. وأنا لست مستعدا للضرب الآن . لكننى لا أحب أن يتم ذلك لا على حساب نفسيتك ، ولا على حساب أعصابك . فأجلس مع نفسك ٢٤ ساعة تعيد فيها حساباتك . فاذا رأيت ، بعد ذلك ، أنك أصبحت Fed up من ناحية (المصور) ، تعالى أمسك مجلة « التحرير » .. وأصدرها أسبوعيا بدلا من نصف شهرية) .

جلست مع نفسى الـ ٢٤ ساعة التى طلبها منى عبدالناصر .. ثم عدت اليه ، بعدها ، بتصميم أكثر على ترك (المصور) . فقال لى :

ــ خلاص ... روح للسادات فى دار التحرير وأخبره بما أتفقنا عليه ، ثم عد الىّ لتعرفنى بما تم بينكما .

وذهبت الى السادات . فأخبرته بما تم الاتفاق عليه مع عبدالناصر . وكانت صدمة قاسية لى أنى وجدته يقول :

ــ بس أنت مرتبك كبير . ودا حايعمل لى متاعب فى الدار .

كنت ، فى ذلك الوقت ، أتقاضى مرتبا قدره ١٧٥ جنيها .. وكنت أعلم أن فى (دار التحرير) آخرين يتقاضون ضعف هذا المرتب . فقلت له :

ــ أنت تعلم أننى وصلت الى مرتبى هذا الذى تعتبره كبيرا بكفاءتى ، وبجهدى ، وحدهما . واذا كان أصحاب دار الهلال قد منحونى هذا الراتب ، فان من حقى أن أعتبر أننى أساوى أربعة أضعافه ، لأن (منطق رأس المال) لا يعطى للعامل ، عادة ، غير ربع مايستحق .

فقال السادات :

ـ على كل حال .. موش حا نختلف .

وانصرفت من عند السادات عائدا الى عبدالناصر .. لكى أخبره ـ حسبما طلب منى ـ بما دار بينى و بين السادات . و بعد أن أستمع الى مادار بيننا من حوار . قال معلقا :

ـ هوماله ومال مرتبك .. هوحايدفع لك حاجة من جيبه . على كل حال ماتشغلش بالك بحكاية مرتبك . إذا ما كانش حايز يد ، فتأكد أنه موش حاينقص .

بدد تعليق عبدالناصر كل الغيوم التى كان رد السادات قد سربها الى نفسى . ولكن .. هل أنتهت هذه الحكاية عند هذا الحد ... ؟

لا أعتقد ..

فان مالاح على وجه عبدالناصر من علامات الاستياء من إجابة السادات علىّ ، كان مؤشرا بانه سوف لا يتركها تمر ، دون أن يكون له مع السادات وقفة بشأنها .

وصدق احساسى . فقد جاءت الطر يقة التى راح السادات يتعامل بها معى ، بعد ذلك اللقاء ، مؤكدة بأن عبدالناصر لم يترك المسألة تمر . فقد أخذ يتقبل (الأفكار الجديدة) التى كنت أنتوى ادخالها على مجلة (التحر ير) بقدر من الفتور واللامبالاة يوحي بأنه ير يد أن يقول : أن الأمر لا يعنيه . ولقد تأكد لى ذلك أكثر .. وأكثر .. عندما قدمت له ـ بوصفة مدير عام المؤسسة طلبا بأن تخصص المؤسسة سيارة بسائقها

لاستخدامها فى المهام الصحفية الخاصة بالمجلة . فاذا به يكتب على الطلب .. و بخطه المميز .. كلمة واحدة فقط .. هى : (لأ) !!!

لقد كان فى امكانه ــ بطبيعة الحال ــ أن يقول أشياء كثيرة يعتذر بها عن اجابة هذا اللطب . كان فى امكانه أن يقول : أن المؤسسة ليس بها فائض من السيارات يسمح بأن تخصص واحدة لمجلة التحر ير . وكان فى امكانه أن يقول : أنه يرى أن مجلة التحر ير ليست فى حاجة الى مثل هذه السيارة . وغير هذه وتلك ، كان فى امكانه أن يقول أشياء كثيرة يعتذر بها عن اجابتى لطلبى . لكنه قصد أن لا يقول غير هذه الكلمة الواحدة .. (لأ) التى لم ينس أن يضع « الهمزة » على الحرف الأخير منها . !!

و بلغ به عدم الاكترات بالمجلة ، ومايدور فيها ، الى حد أنه لم يكن يقرأ ــ أو هكذا كان يقول ــ المقال الافتتاحى الذى كنت اكتبه ــ باسمه ــ كل أسبوع . فكنت كلما سألته عن رأيه فيما كتبته باسمه ، أجابنى اجابة واحدة لا تتغير : لم أقرأه . !!

وعندما كنت أقول له :

ــ ان ما اكتبه يحمل أسمك . ومن حقى أن أكون مطمئنا الى أننى أحسن التعبير عنك .

كان يقول :

ــ أنا متأكد من ذلك .

ولا يز يد ... !!

وذات يوم كنت على موعد معه فى (دار التحرير) . وبينما أنا فى طريقى اليه .. وأمام ضريح أحمد ماهر الواقع بشارع رمسيس ، أنحرفت فجأة ، وبلا أية مقدمات ، سيارة تابعة لمستشفى الحميات بالعباسية ... فصدمت سيارتى صدمة عنيفة حطمت جانبها الأيمن ، وطوحت بها الى الجزيرة التى كانت تتوسط ذلك الشارع الكبير .

وتوجهت الى قسم شرطة الوايلى لعمل محضر بالحادث .. وكان قد صحبنى اليه ، كشاهد ، مواطن شاب ، لم أنس أسمه الى هذه اللحظة : (محمد عبد اللطيف دحروج) . وعندما طال انتظارى بقسم الشرطة . اعتذر لى ذلك الشاب ، بعد أن أدى شهادته ، بأنه لا يستطيع الانتظار أكثر مما انتظر . وسألنى :

ــ أى خدمة ممكن أقضيها لك بعد أن اخرج من هنا ؟

فقلت له :

ــ أرجوك تتصل بالبكباشى أنور السادات فى دار التحرير ، وتعتذر له عن عدم ذهابى اليه بسبب هذا الحادث الذى وقع لى ، ولا تنسى أن تقول له أننى موجود الآن فى قسم الوايلى .

ونتيجة للهزة العصبية التى أصابنى بها الحادث ، مكثت يومين بالبيت لم أذهب فيهما الى مكتبى . ولم يسأل السادات خلالهما عنى . لا كصديق .. ولا كزميل .. ولا حتى كمرؤوس وقع له حادث . !!

وكان التصور الوحيد عندى أن ذلك الشاب حاول الاتصال به ففشل .. أو أنه لم يحاول أصلا الاتصال به .

لكن المفاجأة كانت موجعة للقلب .. وللنفس معا .

فعندما أتصلت به ، بعد ذلك ، معتذرا عن عدم ذهابى اليه فى الموعد الذى كان بيننا بسبب ما وقع لى . وقلت له : أننى كلفت شابا كان قد صحبنى الى قسم الشرطة ، لكى يتصل بك معتذرا عن ذلك الموعد ، ويخبرك بما حدث . جاءنى رده فى كلمة واحدة :

ــ بلغنى ...

ولم يزد على هذه الكلمة حرفا !!

هنا .. لم أستطع أن أملك نفسى . فاندفعت ــ من موقع الصديق القديم .. ومما كان بيننا من « عيش وملح » ــ فى سيل من العتاب ، أعترف بانه كان قاسيا . تقبله هو فى هدوء . ثم قال بفتور ظاهر :

ــ على كل حال .. حمد الله على سلامتك .

....

....

ومضت بنا الأيام تجرى ...

حتى كان ذلك اليوم الذى وقعت فيه الأزمة بين صلاح سالم وبينى ، والتى سبق أن أشرت اليها فى الفصل الخاص بعبدالناصر . لقد رأى عبدالناصر ، كما رويت ، أن أقوم فى (أجازة مفتوحة) الى أن تهدأ ثورة صلاح سالم . وطلب من السادات أن يبلغنى ذلك بنفسه ، وأن يشرح لى الملابسات التى أحاطت بصدور هذا القرار حتى يخفف من وقعه على نفسى .

لكن السادات لم يبلغنى بالقرار بنفسه كما طلب منه عبدالناصر ، وانما كلف سكرتيره الخاص (اليوزباشى حسن نايل) بأن يقوم

بتبليغى . ولما أردت التعرف على أسباب القرار ، من سكرتير السادات ، كان رده :

ـ ان كل ماقاله لى جناب البكباشى هو: أن أبلغك بأن تعتبر نفسك فى اجازة مفتوحة ، وان الاستاذ سامى داود سيتولى أمور المجلة بدلا منك .

وكان لابد لى ، بطبيعة الحال ، من أن أواصل محاولة التعرف على أسباب هذا القرار . ولكن .. تعذر على ، وقتها ، أن القى عبد الناصر الذى كان غارقا فى ردود الفعل التى أحدثتها صفقة الأسلحة التشيكية . فتوجهت الى عبد الحكيم عامر فى مقر القيادة العامة ، فى محاولة للتعرف منه على تلك الاسباب . فارتسمت الدهشة على وجهه ، وسألنى :

ـ هو أنور ماقلش لك الأسباب .. ؟

قلت :

ـ أصل موش أنور هو اللى بلغنى .

تساءل عبد الحكيم .. وقد أزدادت دهشته :

ـ أمال مين اللى بلغك .. ؟

قلت :

ـ حسن نايل .

قال :

ـ بتقول مين ؟

ـ كررت :

ـ حسن نايل ...

وبينا نحن فى هذا الحوار .. اذا ، بالباب الفاصل بين غرفة عبد الحكيم عامر وغرفة مدير مكتبه شمس بدران يفتح و يدخل منه أنور السادات .

قائلا :

ــ صباح الخير .

رددت عليه تحيته . ولم يردها عبد الحكيم . وسحب السادات كرسيا وتهيأ للجلوس . لكنه ، قبل أن يجلس ، سأله عبد الحكيم :

ــ مين يا أنور اللى بلغ حلمى بقرار الأجازة ؟

فقال السادات .. وهو مايزال واقفا وممسكا بالكرسى الذى كان قد تهيأ للجلوس عليه :

ــ الحقيقة ياحكيم أنا كنت مشغول ، وخشيت أنه يروح مكتبه يلاقى سامى داود قاعد عليه تبقى موش ظريفة . فكلفت حسن نايل يتصل به و يقول له .

وفوجئت بعبد الحكيم يصرخ فيه قائلا :

ــ هو دا اللى احنا اتفقنا عليه فى المجلس ؟ انت فاكر ان احنا بنلاقى الناس فى الشارع .. ؟

واستمر عبد الحكيم عامر يصرخ فى السادات الذى انتظر عليه حتى توقف عن الصراخ فى وجهه . وقال له :

ــ أنت عصبى قوى النهاردة ياحكيم . أنا حا امشى دا الوقت وأجى لك مرة تانية تكون هديت .

واستدار متوجها نحو الباب الذى كان قد دخل منه .

....

....

كان هذا الاستقبال الذى أستقبل به عبد الحكيم عامر زميله السادات ، والذى جرت أحداثه على مسمع ومشهد منى .. هو (القشة التى قصمت ظهر البعير) . والبعير هنا هو علاقتى بالسادات التى كانت قد بدأت فى سنة ١٩٤٧ ، متوهجة وساخنة فى مثل توهج الشمس وسخونتها .. وانتهت فى سنة ١٩٥٤ ، باردة كلوح من الثلج .

فمن المؤكد أن السادات قد تصور ، خطأ أننى ذهبت الى عبد الحكيم عامر شاكيا من الأسلوب الذى أبلغنى به قرار (الاجازة المفتوحة) . ولقد جاء ذلك الهياج الذى استقبله به عبد الحكيم .. والذى لم أكن أنا نفسى أتوقعه ، مؤكدا لمثل هذا التصور الخاطىء عنده . فاذا أدخلنا فى الحساب ، أنه كان لديه تصور سابق أننى ذهبت الى عبد الناصر شاكيا من توقفه عند مرتبى ـ والله أعلم ماذا قال له عبد الناصر ـ كان طبيعيا اذن أن تنتهى العلاقة بيننا الى ما انتهت اليه . خاصة وأنه بتصرفاته الشخصية السابقة معى ، كان قد نسف كل جسور المودة التى كان من الممكن أن أمشى عليها اليه : مستفسرا .. أو شارحا .. أو موضحا !

وحتى لو كانت مثل هذه الجسور قائمة ، فأنها لم تكن لتجدى نفعا فى فتح مغاليق قلبه . فعلى الرغم من انه كان يعيد و يز يد ، وبمناسبة و بغير مناسبة ، فى الحديث عن (الحب) .. الا أن ذلك كان شيئا لا يتجاوز عنده طرف اللسان . اما الحقيقة فكانت غير ذلك تماما . فانه حين كان يكره شخصا ما ، فانه كان يكرهه بعنف .. وبمرارة !!

والبراهين على ذلك كثيرة . لكننى اكتفى هنا بواحد منها فقط . فلقد كان السادات ــ على سبيل المثال ــ يكره اللواء أحمد فؤاد صادق كراهية مريرة . ولم يكن يكرهه ، وبهذه المرارة ، لانه خائن .. أو لأنه عميل .. أو لأنه ساقط اخلاقيا . أو الى غير ذلك من الأسباب المشابهة التى تجعل من كراهيته له شيئاً مشروعا . وانما كان السادات يكره فؤاد صادق لسبب شخصي جدا لا علاقة له ، مطلقا ، بشيء مما ذكرنا .

كان السادات يكره فؤاد صادق لان معتقل (ماقوسه) بالمنيا جمعهما معا فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ . وكان فؤاد صادق ، وقتها ، يحمل رتبة الأميرالاى (العميد الآن) . بينما لم يكن السادات قد تجاوز رتبة اليوزباشي (النقيب الآن) . والمسافة بين الرتبتين بعيدة جدا .. ثلاث رتب عسكرية . وكان فؤاد صادق من المدرسة العسكرية القديمة التى تقدس (المسافات) بين الرتب . ومن هنا ، فانه لم يقترب من السادات .. ولم يسمح للسادات بأن يقترب منه . ومن يومها ــ والى أن مات الرجل ــ دخلت كراهيته قلب السادات .. ولم تخرج . !!

ولست أذكر مرة جاءت فيها سيرة فؤاد صادق فى حديث لى معه ، الا واشبعه سبا وتجريحا . ولقد أفصح السادات عن هذه الكراهية التى كان يحملها لفؤاد صادق عندما تناول ، فى احدى كتاباته ، قصة اعتذار الرجل عن قيادة ثورة ٢٣ يوليو وقتما عرضتها عليه الهيئة التأسيسة للضباط الأحرار ، قبل عرضها على محمد نجيب . فوصفه ، فيما كتبه ، بأنه (مغرور .. وذو صلف .. وكبرياء كاذب) !!

وازداد تعبير السادات عن حجم كراهيته لفؤاد صادق ، عندما عرض فى صفحات كتابه : (البحث عن الذات) لظروف نقله ، وزميله حسن عزت ، من (سجن الأجانب) بالقاهرة الى معتقل (ماقوسة) بالمنيا . فبينما ذكر السادات — بالأسم — كثيرين ممن ضمهم معه (سجن الأجانب) .. أو (معتقل ماقوسة) .. ممن يقلون شأنا وقدرا عن فؤاد صادق ، نجده يضن على (العميد) فؤاد صادق .. وعلى رفيق كفاحه (البكباشى) محمد كامل الرحمانى ، بذكر اسميهما . فيقول فى صفحة ٦٧ من كتابه :

« .. كان فى انتظارنا على رصيف الصعيد فى محطة مصر ، قطار ديزل صغير أدخلونا فيه . فاكتشفت أننا لم نكن وحدنا . اذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين . منهم ، على ما اذكر ، اثنان من كبار ضباط الجيش .. من ضحايا الأحزاب » .

ولان حسن عزت — رفيق السادات فى سجونه .. ومعتقلاته — لم يكن يحمل لاى من الرجلين شيئا من تلك الكراهية التى كان السادات يحملها لكل منهما — ولفؤاد صادق بصفة خاصة — فاننا نجده فى صفحة ٤٢ من كتابه : (أسرار معركة الحرية) يتكلم عن كلا الرجلين بمشاعر مختلفة .. وأيضا بلغة مختلفة تماما عن مشاعر السادات ولغته . فيقول :

« ... وذات يوم ، سمعنا أن ضابطين كبيرين قد شرفا ونزلا ضيفين على (سجن الأجانب) . وحاولنا أن نعرف من هما هذان الضابطان ، فتضاربت الأقوال . وصعدت على كتف أنور ونظرت من فتحة صغيرة فى الشراعة العليا ، فوجدتهما جالسين فى الشمس خارج الطرقة . عرفت منهما

ضابط باسلا كان استاذى فى الكلية الحربية ، وكان مثالا للأخلاق العالية الكريمة .. ومثلا أعلى للضابط .. هو البكباشي محمد كامل الرحماني . اما الآخر فكان أسمر اللون .. نحيفا .. وتبدو على وجهه علامات الصرامه والقوة .

« نزلت من على كتف أنور. وقلت له : دا الرحماني يا أنور ومعاه واحد تانى ما اعرفوش .. انما الظاهر انه من ضباط الجيش برضه . فسألنى أنور: شكله ايه ؟ فقلت له : أسود زيك .. وطويل ورفيع .. وباين عليه (دكر) .

« ولم يمض وقت طويل حتى ظهر كل شيء .. واتضح ان هذين الضابطين الباسلين كانا قد قاوما الطغيان أيضا .. فكان مصيرهما كمصيرنا . فشرفا سجن الأجانب ، ونزلا ضيفين على مديره مستر هيكمان » .

ومثلما كان السادات يتحدث كثيرا .. وكثيرا جدا .. عن (الحب) .. كان يتحدث أيضا عن (الوفاء) .. وبنفس الحماسة والحرارة والتكرار. وهنا ، أيضا ، كان الأمر لا يتجاوز طرف اللسان . اما الحقيقة فكانت شيئا مختلفا تماما عن كل ذلك الذى كان يقوله و يعيده . فما أظن أن أحدا منا يمكن أن يكون قد نسى ما حدث فى الأيام والأسابيع الأولى التى أعقبت وفاة عبد الناصر . ففى تلك الأيام والأسابيع الأولى ، تقرر اطلاق أسم عبد الناصر على قاعة الاجتماعات الكبرى بجامعة القاهرة .. وعلى استاد القاهرة الرياضى . ومضت

وسائل الاعلام من صحف واذاعة وتليفز يون ، تذكر هذين المكانين ــ فى مناسبة ذكراهما ــ مقترنين باسم (ناصر) . وكانت (بحيرة السد) ، ومنذ أن نشأت ، معروفة باسم (بحيرة ناصر) . ولكن ، لم تكد تمضى على ذلك بضعة شهور، حتى كان أسم (ناصر) قد حذف من الاقتران بقاعة الاجتماعات الكبرى فى الجامعة ، ومن الاقتران باستاد القاهرة الرياضى .. بل ومن الاقتران ببحيرة السد التى كان قد مضى على اقتران أسم (ناصر) بها مايقرب من عشر سنوات سابقة على مجيىء السادات الى الحكم . !! لقد محى ذلك كله على يد الرجل الذى كان هو ــ وهو بالذات .. ومن دون زملائه جميعا ــ الذى أطلق على عبدالناصر لقب : (القائد .. والمعلم .. والزعيم) . !!

ولقد كان السادات ــ والحق يقال ــ يمش على طريق (الوفاء) فى خطين متوازيين تماما : خط يوصله الى محو اسم (القائد .. والمعلم .. والزعيم) من الوجود المصرى كله . فلا أسم ، ولا رسم ، ولا ذكر اللهم الا أن يكون نبشا لقبره .. أو تشويها لصورته .. أو إدانة شاملة كاملة لعهده ، ولكل ماجرى فى ذلك العهد الذى كان يلذ للسادات ، فى كل مناسبة ، أن يطرح على نفسه (عباءة الفروسية) و يكرر أنه مسئول ، مع صاحبه ، عن كل ماحدث فيه .. وعن كل قرار أصدره .

ومن المؤكد أن السادات كان يعيد و يزيد فى هذا القول بذكاء من يعلم ، علم اليقين ، انه لا أحد يستطيع أن يساءله . فالحكومة حكومته . والحزب حزبه . والصحافة ملكه وطوع بنانه ــ واذن ، فليس هناك من

يجرؤ على مثل هذه المساءلة .. وليس هناك من يستطيع . ولكن .. تبقى ـــ فى النهاية ـــ المحصلة الأخيرة لهذا القول المكرر والمعاد .. وهى أن يبدو فى عيون الملأقة فى (الوفاء) . وهذا فى حقيقة الأمر، هو كل ما كان يهدف اليه .. وكل ما كان يقصده . !!

أما الخط الثانى من خطى طريق (الوفاء) الذى كان السادات يسير عليه ، بالتلازم مع الخط الأول ، فهو خط (الوفاء) لذاته التى كان مبهوراً بها أعظم أنبهار .. وللعمل على تخليدها قبل أن يغادر الحياة الدنيا ، و يصبح تخليده مرهونا بارادة آخرين ممن قد لا يحسنون تخليده بقصد أو بغير قصد .. أو ممن قد يخلدونه .. ولكن ، ليس على الصورة التى يحبها و يرضاها . !!

وانطلاقاً من هذه القناعة ، مضى السادات يخلد نفسه بنفسه ... فأصبح لدينا ، فى حياته .. وقبل مماته ، (أكاديمية السادات) .. و(معاش السادات) .. و(مدينة السادات) . !! هذا فضلا عن الأيام والتواريخ التى أرتبطت فى أذهان الجماهير ارتباطا مباشرا باسمه . فصار لدينا ، وفى حياته أيضا ، (مدينة ٦ أكتوبر) .. و(مدينة العاشر من رمضان) .. و(كوبرى ٦ أكتوبر) .. و(مجلة اكتوبر) .. و(جريدة مايو) . أما (اليوم الأم) .. يوم ٢٣ يوليو الذى كان له الفضل الأول ، والأخير ، فى أنه وضع السادات على طريق (السلطة) التى استطاع بها ، ومن خلالها ، أن يكرم « ذاته » كل ذلك التكريم ، فقد تركه السادات يسقط ، تماما ، من ذاكرته .. ربما لانه يذكره بمن

لا يريد ـ من باب « الوفاء » ـ أن يتذكره .. وأعنى به (القائد .. والمعلم .. والزعيم) . !!

وعلى مدى السنوات العشر التى جلس فيها السادات على كرسى عبدالناصر ـ ولابد أن يكون هذا الكرسى قد أستبدل بآخر هزاز مستورد من باريس ـ بلغت محاولات (التعتيم) على أسم عبدالناصر .. وعلى رسمه .. ذروتها ، حتى الأفلام التليفزيونية الوطنية التى كانت صورة الرجل جزء لا يتجزأ فيها ، قصها (المقص) لكى توضع ، بدلاً منها .. وفى مكانها ، صورة (رجل الوفاء) الذى بلغ من الإفتتان بذاته .. وأيضاً بصورته ، فى أى وضع .. وفى كل وضع ، حد (الهوس المرضى) . !!

وفى الذكرى الرابعة والعشرين لثورة يوليو ، وعلى الرغم من ذلك الجرح الدامى الذى أصابنى به عبدالناصر شخصياً ، فاننى لم استطع أن أمنع قلمى من إدانة ذلك (الجحود) الذى كانت ذكراه تلقاه على يدى (صديقة الوفى) .. ومن يأتمرون بأمره ، و يتحسسون مشاعره ، و يسارعون إلى ترجمتها إلى أقوال وأفعال . فكتبت فى مجلة (الفجر) القطرية التى كنت أديرتحريرها ، بعددها رقم ٧٩ الصادر فى ٢ أغسطس سنة ١٩٧٦ ، كلمة تحت عنوان : (كأنها ليست ثورته) قلت فيها :

« كأنه فى نظر الصحافة المصرية ـ يومية وأسبوعية .. على السواء ـ لم يكن هو « مؤسس » ثورة ٢٣ يوليو!! كأنه لم يكن الرجل الذى عبر بها الحدود ـ كل الحدود ـ من مصر .. الى الوطن العربى .. الى العالم

الثالث !! كأنه لم يكن الرجل الذى جابه بالثورة ، وقاتل بالثورة ، وأخطأ .. وأصاب .. بالثورة ..

كأنه لم يكن الرجل الذى تحدى الدنيا ، وأمم ـ بالثورة ـ قناة السويس !! كأنه لم يكن الرجل الذى تحدى أوربا بأكملها ، وكسر ـ بالثورة ـ احتكار السلاح !! كأنه لم يكن الرجل الذى تحدى الجبروت الامريكى ، والصلف الامريكى ، وبنى ـ بالثورة ـ السد العالى !! .

كأنه لم يكن الرجل الذى تحدى ـ بالثورة ـ الامبراطورية العظمى التى لم تكن الشمس تغرب عن ممتلكاتها ، واكرهها ـ اكراها ـ على أن تحمل عصاها على كاهلها وترحل .. من مصر .. ومن كل أرض عربية أخرى كانت تقف عليها .. بقدم واحدة .. أوبقدمين !! .

أخطأ فى بعض الظروف ، وفى بعض المواقف ؟!

نعم .. فما كان لرجل فى مثل حجمه ، وفى مثل دوره ، الا يخطىء .

تجاوز فى بعض الظروف ، وفى بعض المواقف ؟ .

نعم .. فما كان لرجل فى مثل حجمه ، وفى مثل دوره ، الا يتجاوز .

تصرف ـ بالقسوة ـ فى بعض الظروف ، وفى بعض المواقف ؟! ..

نعم .. ومن منا لم تكرهه الظروف على أن يتصرف ـ بالقسوة ـ ضد طبيعته .. وضد معان كثيرة .. يجلها ، ويحبها ؟! .

هزم فى معركة .. أوفى معارك ؟! .

نعم .. وليس يعيبه ـ تاريخيا ـ انه هزم فى معركة .. أوفى معارك .. فمن قبله هزم « نابليون » فى أكثر من معركة .. وانتهت به هزائمه الى أن أخذه

أعداؤه أسيرا . لكنه ، مع ذلك .. وعلى الرغم من ذلك ، بقى « علامة مجد » فى كتاب فرنسا لا يستطيع الفرنسيون أن يعبروها ، دون أن يتوقفوا ـ بالاجلال ـ عندها .

أقول .. كأن « عبد الناصر » لم يكن فى نظر الصحافة المصرية ـ يوميه واسبوعية ـ هو كل هذا .. ومن هنا ، تجاهلته جميعها . فلم تضع واحدة منها فى الذكرى الرابعة والعشرين لثورته .. ثورة ٢٣ يوليو ، صورة له على صدرها .. ولا فى داخل صفحاتها .. وكأنه (شىء) يتحتم أن ينسى !! .

فهل هذا هو (الوفاء) الذى يفترض فى الصحافة أن تعلمه لمن لا وفاء لهم ؟ ..

وهل هذا هو (الصدق) الذى يفترض فى الصحافة أن تعلمه لمن لاصدق فيهم ؟ ..

وهل هذا هو (التاريخ) الذى يفترض فى الصحافة ان لاتزيفه ، ولا أن تحرفه ، ولا أن تضيف اليه ، أو تحذف منه ؟ ! .

الجواب .. أتركه لصحافتنا ـ يومية واسبوعية ـ لعلها تستطيع أن تجيب » .

على أن مواقف السادات الغريبة منى ـ وهى لا تختلف فى كثير أو قليل عن مواقفه من « عبد الناصر » ، بعد مماته ، وأيضا من آزروه ، وساندوه ، وحموا ظهره فى معركته مع من أسماهم « مراكز القوى » ـ لم يكن لها أن تصدنى عن قول (كلمة حق) رأيتها حتمية فى مواجهة

« بعض الباطل » الذى نسبه إليه الاستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه : « خريف الغضب » ... وكأنه « حق لا يأتيه الباطل من بين يديه .. ولا من خلفه » !!

ولئن كان « هيكل » قد أستساغ من نفسه ، تنفيثاً عن غضب مرير من السادات أجتاح جوانحه ، أن يذهب إلى آخر المدى فى التفتيش فى ماضى الرجل .. وفى أصله وفصله .. فان « الحق » عندى كان أقوى من « الغضب » عند « هيكل » ، ولعله أيضاً كان أيسر منالاً من ذلك « الباطل » الذى أحسست أن الكاتب كان يجرى وراءه ، الى حد اللهاث ، من أجل أن يثبت شيئاً واحداً .. من أجل أن يثبت « أن السادات كان سليل أسرة أصلها من العبيد » !!!

ولنقرأ معاً (كلمة الحق) التى نشرتها لى جريدة (الجمهورية) بعددها الصادر فى ١٢ مايو سنة ١٩٨٣ تحت عنوان : (الوثائق .. ترد على بركان الغضب) :

الوثائق ... ترد على بركان الغضب !!

لو أن الاستاذ محمد حسنين هيكل كان قد اختار لكتابه الذى صار شهيرا اسم « بركان الغضب » لجاء هذا الاسم اكثر دقة واتساقا مع موضوع الكتاب من « خريف الغضب » الذى اختاره له . ومع أننى ، ككثيرين جدا غيرى ، لم أقرأ من الكتاب غير الفصلين اليتيمين اللذين نشرتها صحيفة « الاهالى » .. الا ان هذين الفصلين ، كانا كافيين ، كل الكفاية ، لان يتركوا بنفسى انطباعا بأنه كان بأعماق الكاتب ،

ساعة ان جلس ليكتب كتابه هذا ، بركان يغلى بالغضب من « انور السادات » .. ومما فعله به .. ومما فعله معه .

فقد قرر « هيكل » فى مقدمة كتابه ان فكرة كتابته جاءته وهو رهين سجن مزرعة طرة ، مع اخرين من الساسة والمفكرين الوطنيين الشرفاء الذين انزلهم « السادات » نفس السجن بقرارات سبتمبر الشهيرة والتى أحسد الزملاء الكتاب والصحفيين الذين استطاعوا الدفاع عنها ، على الرغم من كونها قرارات حملت بدورها من « سورة الغضب » مايجعل الدفاع عنها مهمة ليست صعبة وحسب ، بل مهمة مستحيلة !

فان يغضب « هيكل » من « السادات » لانه اودعه السجن على غير توقع منه .. ولانه ، من قبل .. وايضا على غير توقع منه ، انتزعه من فوق قمة « الاهرام » بعد ان كان قد أمتلا باليقين ان احدا فى مصر كلها لن يستطيع انتزاعه من فوقها .. ولأنه ، من قبل ايضا ، اتهمه على مشهد ومسمع من جموع المصريين الدارسين بفرنسا ـــ بانه (عميل للمخابرات المركزية الامريكية » ـــ اقول أن يغضب « هيكل » من « السادات » لانه فعل به ومعه ، هذا كله فذلك شيء طبيعى جدا . لان « هيكل » ، فى اول الامر واخره ، ليس المسيح عيسى بن مريم الذى قال : « من ضربك على خدك الايمن ادر له خدك الايسر » . وانما هو بشر . صحفى قدير نعم .. ولكنه بشر كسائر البشر .. يحب و يكره .. و يغضب و يرضى .. و يغار ويحقد .. ويحمل فى اعماقه كل العواطف البشرية المعقدة ، والمتناقضة التى يحملها فى اعماقهم سائر البشر .

لكن الذى ليس طبيعيا ، حقيقة ، هو ان يترك «هيكل» نفسه للغضب يجتاحه على هذه الصورة ، و يذهب به الى هذا المدى الذى ذهب اليه .. وجعله لايرد نفسه عن تعقب « جذور السادات » باحثا ومنقبا فى هذه « الجذور» عن « نقاط ضعف) يستطيع أن يخضعها لقدراته ككاتب .. ويحملها على أن تشى له بما ير يد — هو — ان تشى به !!!

ومن خلال جر يه وراء « جذور السادات » ، توقف « هيكل » عند « جد » الرجل .. وأوضح أنه كان (عبدا زنجيا اعتقه سيده) !! . ثم توقف ، مرة ثانية عند امه .. وقال انها ورثت عن ابيها كل تقاطيعه الزنجية التى أورثتها ، بدورها ، لابنها « انور» الذى اصابته هذه التقاطيع بتعقيدات غاصت ، الى بعيد ، فى اعماقه) !! .

ولا احسب ، فيما اظن ، ان احدا قبل « هيكل » ، قد ذهب الى ان قسمات وجه الانسان مليحة كانت هذه القسمات .. أم قبيحة .. يمكن أن تحكم أو تتحكم فى سلوكيات صاحبها وتوجهاته ، و بخاصة اذا ارتفع بهذا الانسان قدره الى قمة السلطة فى قومه .. فنابليون ، مثلا كان ذهبى الشعر .. انثوى القسمات .. بل انه كان انثوى الهيئة ايضا . لكنه ، على الرغم من أنثو ية قسماته .. وانثو ية هيئته ، كان غليظ القلب .. دموى النزعة .. حتى ان منظر دماء مئات الالاف من الفرنسيين الذين قدمهم قر بانا لامجاده الشخصية واطماعه . لم تكن لتهز فيه شعرة من رأسه !!

وعلى العكس تماما من « نابليون » ، كان الزعيم الهندى العظيم « المهاتما غاندى » .. فعلى الرغم من قسمات وجهه التى لا تدخل

بأى مقياس ، فى عداد القسمات المليحة .. فقد كان هذا الزعيم القديس رقيق القلب انسانى التوجهات والسلوك الى حد جعله اقرب الى الانبياء والرسل منه الى العاديين من البشر .

وعلى نفس صورة « غاندى » ملامح وسلوكا ــ كان الكاتب الروسى العملاق « ليوتولستوى » الذى اقتدى « غاندى » بسلوكياته جميعها حين نزل ــ وهو سليل بيت الامراء والقياصرة ــ عن ضياعه واراضيه الواسعة ووزعها على الفلاحين من ابناء شعبه !!

وكذلك الزعيم الزنجى الشهير « مارتن لوثركنج » ، كان « زنجيا مؤصلا » ، ولكن « زنجيته المؤصلة » هذه لم تدفع به الى طريق الشر ، ولم تصب فى وجدانه اى تعقيدات تنأى به ، قيد انملة ، عن طريق الخير والحق والحرية .. وانما الشىء المؤكد أن « زنجيته المؤصلة » هذه ، كانت فى طليعة الاسباب التى جعلته جديرا بنيل جائزة نوبل للسلام .

والامثلة على ما اقول ، سواء فى التاريخ المعاصر .. أو فى التاريخ القديم ، اكثر من ان تعد .

ولكن « هيكل » ــ وهو قارىء جيد للتاريخ .. ولسير الرجال الذين صنعوا هذا التاريخ ــ شاء لبركان الغضب الذى كان يغلى بداخله ساعة ان جلس ليكتب كتابه هذا ان يحمله على تجاهل كل ما احتشد به التاريخ من أمثلة تتناقض كلية مع ماأراد ان يستخرجه من « جذور السادات » .. فتراه يتوقف عند هذه « الجذور » ليقول :

(كانت أمه « ست البرين » ابنه رجل اسمه « خير الله » .. وكان لسوء حظه ، من الذين وقعوا فى اسر العبودية ، وساقه أحد تجار

العبيد من قرب اواسط افريقيا الى حيث باعه فى احد اسواق العبيد التى كانت منتشرة ، فى ذلك الوقت ، بدلتا النيل . وعندما ألغى نظام العبودية فى مصر ، بعد اشتداد الحملة فى العالم كله على هذه الظاهرة اللاإنسانية ، فان سادة « خير الله » اعتقوه من اسر العبودية . كانت ابنته ست البرين ــ مثله تماما . ورثت عنه كل تقاطيعه الزنجية . ومن سوء الحظ ايضا ــ وذلك من التعقيدات الدفينة فى اعماق و وجدان انور السادات ــ انه ورث عن امه كل تقاطيعها ، و ورث مع هذه التقاطيع مشاعر غاصت الى بعيد فى اعماقه) !!!

ثم .. انتقل « هيكل » بعد هذه الفقرة الواضحة الدلالة على انه لم يهدف بها الى أى هدف غير النيل من « منبت السادات » ــ انتقل من جد السادات وأمه .. الى أبيه . فقال ان اسم الاب الحقيقى هو « محمد الساداتى » .. وليس « محمد السادات » .

ومضى يشرح الفرق بين « الساداتى » و « السادات » بقوله : تقال « السادات » للسادة وهم ، فى العادة ، من الاشراف أو من مشايخ الطرق الصوفية . ولكن « الساداتي » تعنى أتباع « السادة » أو « السادات » . ومن المحتمل كثيرا ان يكون التعبير هنا منسوبا الى أحد مشايخ الطرق الصوفية التى تنتشر فى الريف المصرى ودلالة هذا اللقب هنا أن « الساداتى » كان تابعا « للسادات » ، ولم يكن واحدا منهم . وبعد ثورة سنة ١٩٥٢ حذف انور السادات من اسمه « ياء » النسبة ، لكى يصبح لقب اسرته هو « السادات » . ولكن ملفه فى الكلية الحربية ، لا يزال يحمل اسمه الاصلى .. وهو « الساداتى » !

وواضح من هذه الفقرة الثانية التى توقف بها « هيكل » عند لقب اسرة « السادات » .. وشرح ، وأفاض فى الشرح .. أنه انما اراد أن يؤكد بها شيئا واحدا ، وهو ان « انور السادات » كان سليلا لاسرة من الاتباع والعبيد .. أماً عن اب !!

والأن ... هل صحيح هذا الذى زعمه هيكل من أن « انور السادات » ، غير لقبه ــ بعد قيام ثورة سنة ٥٢ ــ وجعله « السادات » بدلا من « الساداتى » .. حتى ينفى عن نفسه ، وعن اسرته ، سبة التبعية للاشراف ؟

* * *

ان أمامى ، وأنا اكتب كلمتى هذه ، أربع وثائق قاطعة ، مانعة ، فى الرد على مزاعم « هيكل » .

● الوثيقة الاولى فى هذه الوثائق الاربع ، هى صورة للغلاف الخارجى لملف خدمة « أنور السادات » بالقوات المسلحة ، وقد حمل هذا الملف رقم ٢٢٧٤ والى جانب الرقم .. حمل الملف اسم صاحبه ــ وقد كتب ، بالصدفة المحضة .. وليس مكايدة فى « هيكل » ــ بخط يخرق العين .. فاذا هو « محمد انور محمد السادات » .. وليس (الساداتى) كما زعم صاحب « بركان الغضب » !

● اما الوثيقتان الثانية ، والثالثة ، فهما صورتان لاثنين من التقارير السرية التى جرى النظام العام بالقوات المسلحة على ان يكتبها القادة العسكريون ، كل عام ، عن الضباط العاملين تحت قيادتهم . وأول هذين التقريرين عن « اليوزباشى محمد أنور السادات » خلال المدة

من أول مايو سنة ١٩٤٢ حتى اخر سبتمبر من نفس السنة ـ أى قبل قيام ثورة ٥٢ بعشر سنوات كاملة ـ وقد اثبت فى هذا التقرير ان لقب صاحبه هو: « **السادات** » وليس « **الساداتى** » !

اما التقرير السرى الثانى، فكان عن « **الصاغ محمد انور السادات** » خلال المدة من اول مايو سنة ١٩٥٠ . وقد اثبت فى هذا التقرير، الذى كتب بعد حوالى ثمانى سنوات من كتابة التقرير الاول، ان لقب صاحبه مايزال كما هو: « **السادات** » وليس « **الساداتى** » !

● اما الوثيقة الرابعة فهى صورة من اقرار كتبه « انور السادات » فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أى قبل قيام الثورة بتسعة شهور، برغبته فى دخول امتحان القبول بكلية أركان الحرب . وقد وقع الاقرار باسمه .. وبلقبه الذى كان، ساعتئذ، يحمله .. فاذا هو « **السادات** » .. وليس « **الساداتى** » !

فأى خجل يمكن أن تحمله هذه الوثائق الأربع لكاتب كبير .. ذكى وقدير .. مثل « هيكل » ؟ !!

وأى فاجعة يمكن ان تحملها هذه الوثائق لقرائه العديدين الذين كانوا يعتقدون انه، لا ينطق الا ليقول حقا ؟ !!

لقد أتاح لهيكل مكان عند « القمة » ، فى « عصر عبد الناصر » ، ان يعرف الكثير من الخبايا والاسرار .. هذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان . لكن .. الى جانب هذه الحقيقة التى لا يختلف عليها اثنان ،

توجد حقيقة اخرى لها من القوة مثل ما للحقيقة الاولى ، وهي أن « هيكل » ــ اعتمادا على ما استقر في اذهان جماهير القراء هنا .. وفي الوطن العربي كله ، من انه يعرف من الخبايا والاسرار مالم يتح لاحد غيره أن يعرفه ــ اعطى نفسه الحق في ان يقدم لقراء مقالاته .. وايضا لقراء كتبه .. معلومات كثيرة لا وجود لها الا في مخيلته ، ولا سند لها من الحقيقة من قريب أو بعيد .. من عينة لقب « السادات » الذى زعم بأن الرجل غيره ، بعد قيام ثورة ٥٢ ، من « الساداتي » الى « السادات » ! ومن عينه قوله : « في أواخر سنة ١٩٥١ ، أصبح أنور السادات عضواً في تنظيم الضباط الاحرار. وقد كان جميع اعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار يعارضون انضمامه اليها .. باستثناء عبد الناصر » .

وهذه الفقرة من كتاب « خريف الغضب » ، أوردها الزميل الاستاذ صلاح منتصر في مقاله الذى نشرته (الاهرام) بتاريخ الاحد أول مايو، وكان عنوانه : « **الاستاذ هيكل : شاهد .. أم شريك ؟** » . وقد استدل الاستاذ منتصر من هذه الفقرة ــ وله العذر ــ على أن عبد الناصر « كان ديكتاتورا منذ اللحظة الاولى » . فقال في التعليق عليها : « ولو كان هذا صحيحا ، كما يشهد بذلك الاستاذ هيكل ، فمن المؤكد اننا أمام ظاهرة بالغة الاهمية .. وهي ديكتاتورية عبد الناصر، وانتفاء كل ما قيل لنا عن الديمقراطية التى كانت تحكم مناقشات اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار.. قمة التنظيم » .

● فهل صحيح هذا الذى أورده « هيكل » فى شأن انضمام السادات الى اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار؟!

● هل صحيح ان « عبدالناصر » فرض « السادات » ـ فرضا ـ على زملائه اعضاء اللجنة التأسيسية الذين كانوا ـ جميعهم ـ يعارضون انضمام « السادات » اليهم .. فيما عدا « عبدالناصر » ؟!

لنقرأ معا الاجابة عن هذين السؤالين ، فيما اثبته فى مذكراته السيد « **عبداللطيف البغدادى** » .. عضو اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار .. وعضو مجلس قيادة الثورة .. ونائب رئيس الجمهورية فيما بعد .

ففى الجزء الاول من هذه المذكرات التى أتسمت بالدقة ، وبالامانة ، وبالموضوعية .. وايضا بالعزوف الكامل عن ادعاء البطولة والافتتان بالذات ـ يقول « البغدادى » فى صفحة ٣٤ منها عن واقعة انضمام « السادات » الى اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار، مايلى :

« قبل انتهاء سنة ١٩٥١ ، وبعد انضمام « جمال سالم » الى اللجنة التأسيسية ، أقترح « عبدالناصر » ضم « انور السادات » الى اللجنة .. بعد أن سألنا عن رأينا فيه ، لسابق اشتراكه معنا فى التنظيم السرى عام ١٩٤٠ ، ولم يكن « عبدالناصر » مشتركا معنا فى هذا التنظيم بسبب وجوده فى السودان حتى عام ١٩٤٣ .. وكان « أنور » قد أعيد الى الخدمة بالجيش من فترة ليست بالطويلة ـ عام ١٩٥٠ ـ وقد وافق

الجـمـيـع على انـضـمـامـه ، ولم يعـتـرض عـلـيـه غير « عـبـدالمـنـعـم عبدالرؤوف » .

فمن نصدق اذن ... ؟

أنـصـدق « هـيـكـل » الـذى يـكـتـب عـن واقـعـة لم يشهدها ، ولم يـعاصرها ، ولم يكن ــ وقتها ــ موجوداً عند « القمة » .. لأن « القمة » نـفـسـها لم تكن قد وجدت بعد أم نصدق الرجل الذى كان شاهد رؤ يا بـوصـفـه عـضـوا فى اللـجـنـة التأسيسية التى زعم « هيكل » انها رفضت انـضـمـام ــ « الـسـادات » اليـهـا بـاجـمـاع اراء اعـضـائـهـا .. بـاستثناء « عبدالناصر » ؟ !!!

اترك الجواب لك ..

ولـربما يـقـول قـائـل ان « بـركـان الـغـضـب ــ الذى تفجر بداخل « هـيـكـل » ، سـاعـة ان جـلـس ليكتب كتابه عن « السادات » ، هو المـسـئـول الاول والاخير عـن تـغـييره وتبديله للحقائق الثابتة حتى تجىء مـسـايرة ، ومتسقة ، مع الاحكام التى كان ينتوى ــ مسبقا ــ اصدارها

فى شـأن الـرجـل ، لان « الـغـاضـب » ، عـادة ، انسان لا يملك نفسه .. و بالتالى فهو لا يملك لسانه اذا تكلم .. كما انه لايملك قلمه اذا كتب .

وهذا القول صحيح تماما .. ولكن

مـا رأيـكـم فى انه سبق للاستاذ هيكل ، ولم يكن به ذرة من غضب ، أن نسب لنفسه فى واحد من كتبه مواقف ، وأدوارا ، جعلها هى ــ وهى وحـدهـا ــ الـسـبـب المـبـاشر فى تغيير مسار كثير من الامور التى اعقبت

رحيل « عبدالناصر » مباشرة . ثم جاء السيد أمين هو يدى الذى كان وزيرا للحربية ، ورئيسا للمخابرات العامة ، بعد حرب ٦٧ — وهو رجل موضوعى ، ومهذب ، ودقيق ، ورصين — فنفى فى كتابه : (مع عبدالناصر) .. وبمنتهى الموضوعية ، وعفة اللفظ والكلمة ، كل ما نسبه « هيكل » لنفسه من مواقف وادوار ، ولم ينس ان يلتمس له العذر عما وقع فيه « من كونه صحفيا .. والصحفى لا يستطيع ان يخلص نفسه ، بسهولة ، من الرغبة فى الاثارة .. حتى وهو يكتب للتاريخ » !!

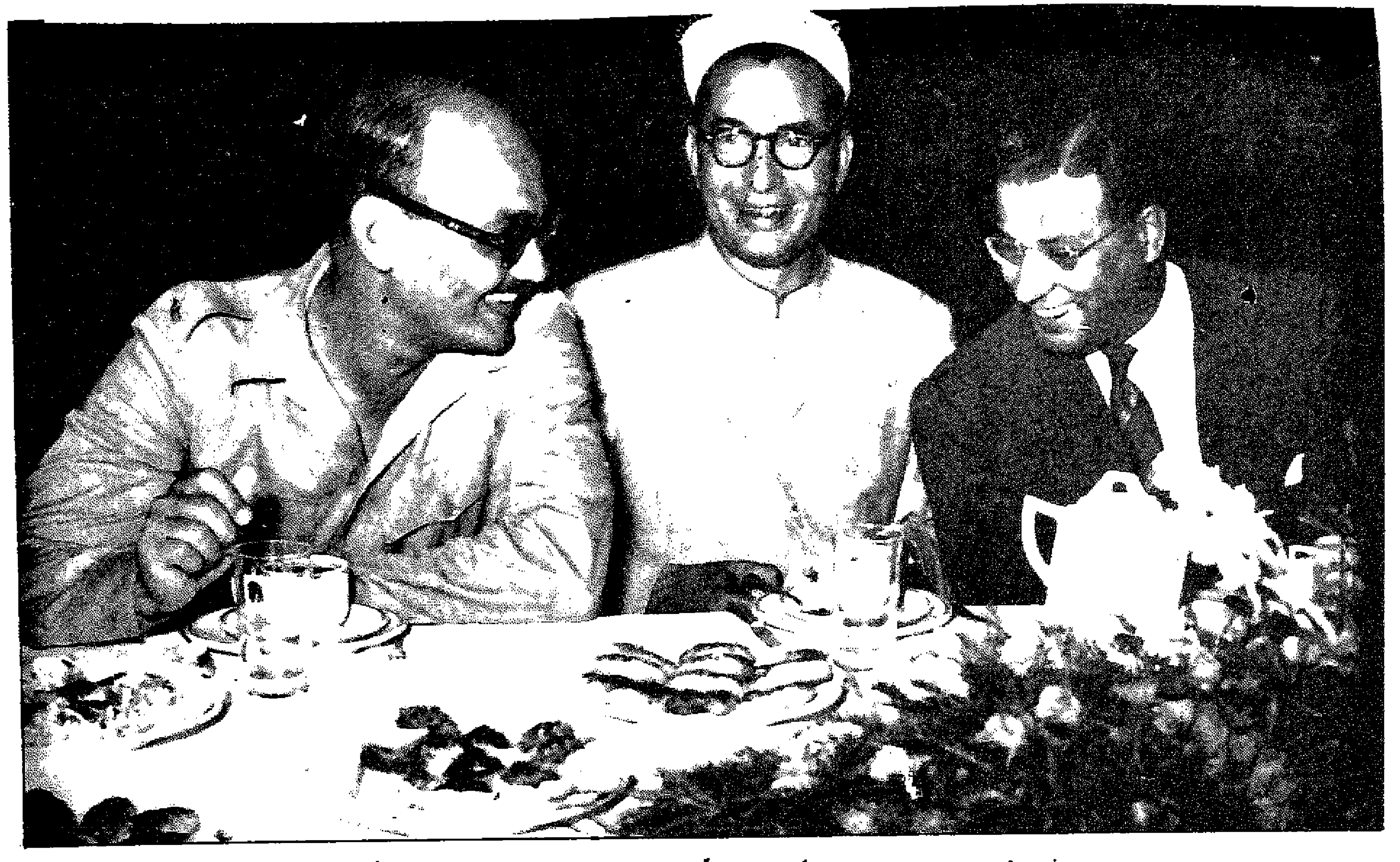
و بعد ....

فأحسبنى لست محتاجا الى القول بانني لم اكتب كلمتى هذه لكى انضم بها الى كوكبة اولئك الذين يهاجمون « هيكل » .. كذلك فأننى لم اكتبها لكى انضم بها الى كوكبة أولئك الذين يدافعون عن « السادات » .. فان له رجاله الذين دافعوا ، و يدافعون عن مواقفه .. وعن تصرفاته وقراراته التى اقف امام اكثرها بالرفض ، و بالمعارضة . انما كتبت هذا الذى كتبته لوجه الحق .. ولوجه الحق وحده .

أما « السادات » نفسه ، فانى اعلم انه كان يحمل لى من الكراهية ما كان كفيلا بان يردنى عن كتابة حرف واحد من هذا الذى كتبته ، لوأن « صوت الحق » فى اعماقى كان مستعدا لان يخفت ، ويخرس ، امام معرفتى بان الرجل كان يحمل لى من الكراهية ما يتنافى تماما والصداقة القديمة التى كانت تربطنى به ، منذ ان نشرت له مذكراته « **٣٠ شهرا فى السجن** » على صفحات « **المصور** » فى اعقاب خروجه من السجن فى سنة ١٩٤٨ ومنذ ان قدمته لاصحاب « دار

الهلال » لينضم الى اسرة العاملين فيها .. لقد شاء فى كتابه : « البحث عن الذات » أن يجردنى من هذا الفضل ــ ان كان ثمة فضل ــ و ينسبه الى صديقى احسان عبدالقدوس .

وليس هذا مهما . وانما المهم ، حقيقة ، هو أن يقوى المرء على نفسه فيقول كلمة الحق .. لوجه الحق وحده ... بغض النظر عن طبيعة المشاعر التى يحملها فى اعماقه تجاه من سوف تجىء كلمة الحق هذه فى صفه .. فكاتم الحق ــ كما يقول الحديث الشر يف ــ « شيطان اخرس » ... ولست احب لنفسى مهما كانت المحاذير، ان اكون هذا الشيطان الاخرس .



فى سنة ١٩٥٣ .. وبمناسبة تعين الكاتب مستشاراً لوزير الارشاد القومى (الصاغ صلاح سالم) أقامت له نقابة الصحفيين حفل تكريم: التقطت خلاله هذه الصورة التى تجمع بينه وبين صلاح سالم والمرحوم الشيخ احمد حسن الباقورى.

الفصل الخامس :

صلاح سالم : وثلاث قصص من حياته

* الزمان : يوم من أيام النصف الأول من شهر أغسطس سنة ١٩٥٣ .
* المكان : بيت الصاغ صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الارشاد القومى .

مائدة الغداء يجلس عليها شخصان فقط : الداعى .. والمدعو. كان الداعى هو الصاغ صلاح سالم . أما المدعو.. فكنت أنا .

كانت هناك صداقة حميمة قد نشأت بيننا فى أعقاب حرب فلسطين مباشرة . فقد التقيت به ، أول مرة ، جالسا على طرف سرير المرحوم اللواء أحمد فؤاد صادق القائد العام السابق لقواتنا المحاربة فى معركة فلسطين ، فى مرحلتها الثانية .

كان اللواء فؤاد صادق يقضى فى منزله بسيدى بشر بالاسكندرية ، فترة نقاهة من عملية جراحية أجريت له . وكان ، فى ذلك الوقت ، قد أضحى قبلة أنظار الضباط الشبان الذين كانت صدورهم تغلى بالثورة ضد القيادات الفاسدة .. والأسلحة الفاسدة .. والنظام الفاسد . فلقد

كانت لفؤاد صادق معاركه الشرسة ، المعلنة والمكتومة ، مع تلك القيادات الفاسدة ، ومع النظام الفاسد نفسه .. وكان الضباط الشبان على علم كامل بكل ما كان يدور فى هذه المعارك الشرسة .. المعلن منها والمكتوم على السواء .

وفضلا عما كان يتمتع به فؤاد صادق من وطنية متأججة ، وشخصية عسكرية صارمة وباترة كحد السيف . كان له أيضا كفاح مشهود ضد التسلط الانجليزى على مقدرات جيش مصر . وهو كفاح لم يستطيع الانجليز عليه صبرا . فاستبعدوه من الجيش ــ وكان برتبة عميد ــ وطوحوا به ، فى سنة ١٩٤٢ ، الى معتقل ماقوسة بالمنيا .. ومعه رفيق كفاحه (المقدم) ــ آنئذ ــ محمد كامل الرحمانى الذى صار ، بعد قيام الثورة ، رئيسا للاذاعة ثم سفيرا لمصر فى تشيكوسلوفاكيا .

كان صلاح سالم يوم لقيته لأول مرة ، فى بيت اللواء فؤاد صادق ، مدعوا للادلاء بشهادته فى قضية الأسلحة الفاسدة التى كانت مطروحة فى ذلك الوقت على القضاء .. وقد حرص ، قبل أن يذهب الى المحكمة ، على الاسترشاد برأى قائده .

لفتنى ــ أول ما لفتنى ــ فى شخصية الضابط الشاب الذى رأيته جالسا على طرف سرير قائده ، حماسة وطنيه متدفقة .. وذكاء وقاد .. ولم يكن هناك مايمكن أن يفسد على صلاح سالم ذكاءه الوقاد هذا ، غير تهوره واندفاعه اللذين كشفت عنهما الأيام فيما بعد .. وبخاصة بعد ما أصبح واحدا من أصحاب (سلطة السيادة) فى بلده .

غادرنا منزل اللواء فؤاد صادق معا .. وغادرنا الاسكندرية أيضا معا ، على مقعدين متجاورين بالقطار المتوجه الى القاهرة . وعندما هبطنا من القطار على رصيف المحطة ، كنا ــ صلاح سالم .. وأنا ــ قد انتهينا من التوقيع على عقد ــ غير مكتوب ــ بصداقة عميقة نشأت بيننا .

....

....

ومضى الزمن يسابق نفسه .. نهار يفر .. وليل يكر فى أعقابه .. وان هى الا ثلاث سنوات فحسب ، بعد ذلك التاريخ الذى لقيت فيه صلاح سالم لاول مرة ، إذا بالثورة تفرض نفسها .. واذا بالضابط الشاب المتدفق حماسة ووطنية وذكاء ، واحد من المع نجومها .

لم تكن مفاجأة لى .. فلقد كنت أعرف مايجرى وراء الأكمة .. أيضا كنت أعرفهم واحدا .. واحدا . الشىء الوحيد الذى لم أكن أعرفه هو (ساعة الصفر) . ولاننى كنت أعرف حدودى .. فاننى لم أحاول أن أعرفها .

وفى سماء الثورة التى فرضت نفسها فى فجر اليوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، و يوما بعد يوم .. وشهرا بعد آخر .. بدأ نجم صلاح سالم يرتفع و يتألق .. وأضحى معروفا على الصعيد الشعبى على نحو لم يسبقه اليه أحد من زملائه فى مجلس قيادة الثورة غير محمد نجيب الذى صار ، خلال السنتين الأوليين من عمر الثورة ، (معبود الجماهير) . و بينما استطاع محمد نجيب ــ بحكم سنه ورتبته وتجاربه مع

الناس والحياة ــ ان يحتفظ بتوازنه كاملا فى مواجهة تلك الجماهيرية الجارفة التى دانت له .. لم يستطع صلاح سالم ــ وأيضا بحكم سنه ورتبته وتجاربه مع الناس والحياة ــ أن يحقق لنفسه شيئا من ذلك التوازن . وانما اجتاحه سيل جارف من الزهو والخيلاء . ومن خلال هذا الزهو، وتلك الخيلاء ، كثرت أخطاؤه فى حق نفسه ، وفى حق الآخرين ، وفى حق الثورة نفسها . وبينما كان هو يرى نفسه يرتفع .. ويرتفع .. كان ، فى الحقيقة ، يجرى بخطى واسعة على طريق السقوط !!

معذرة ، عزيزى القارىء ، فلقد مضيت بك بعيدا عن مائدة غداء صلاح سالم التى كنت أنا المدعو الوحيد اليها .

سألنى صلاح سالم ، ونحن نتناول طعامنا :

ــ ماذا يقول الناس .. ؟

فسألته بدورى :

ــ عن ماذا .. وعن من ؟

قال :

ــ عنى مثلا ...

قلت :

ــ .... وتعدنى ألا تغضب أو تثور؟

قال :

ــ أعدك ..

قلت :

ـ يقولون انك تلعب الورق كل ليلة مع الأميرة فايزة شقيقة الملك فاروق في بيتها بالمعادى حتى مطلع الفجر.

قال :

ـ وايه تانى .. ؟

قلت :

ـ كفاية كده .

قال :

ـ عندك استعداد تسمع ردى على هذا الكلام .. ؟

قلت :

ـ بالتأكيد ... والا ماقلته لك .

قال :

ـ شوف يا سيدى .. أنا لعبت الورق مرة واحدة فى حياتى ، و بعدها تبت . كنت وقتها ملازم أول ، ودعانى بعض الاصدقاء لمشاركتهم اللعب . فلعبت وكسبت .. كسبت ١٢ جنيها . وفى آخر السهرة وضعت ماكسبته فى الجيب الأعلى لبدلتى العسكرية مع مرتبى الذى كنت قد قبضته صباح اليوم نفسه لأنه ، بالصدفة ، كان اليوم الأول من الشهر. فى ذلك الوقت كنا نسكن فى الدور الأول من بيت يقع فى حى الحلمية القديمة . وكان لهذا الدور من البيت بابان : احدهما يفضى الى الصالة . والثانى يفضى الى الغرف الداخلية . دخلت البيت من باب الصالة .. وعند أول كرسى قابلنى ، خلعت

« جاكتتي » وعلقتها عليه ، ثم دخلت الى غرفتي فخلعت بقية ملابسي ونمت . وفى الصباح اكتشفت أن لصا قد تسلل الى البيت من باب الصالة الذى يبدو أننى لم أحكم غلقه ، وسرق من جيب « الجاكت » كل ما كسبته من لعب الورق فى تلك الليلةومعه مرتبي .. يعنى أخذ الحرام والحلال معه . لحظتها أعتبرت أن هذه إشارة لى من السماء بأن لا أعود الى لعب الورق مرّة أخرى . و بالفعل لم أعد اليه مطلقا منذ ذلك اليوم .. والى لحظتنا هذه .

أحسست بالصدق فى رواية صلاح سالم . فليس من المعقول أن يكون قد أنشأها من خياله فور اللحظة التى صارحته فيها بما يقوله الناس عنه . وأعجبني ــ أكثر ما أعجبنى فى روايته ــ تنبهه الى أنها كانت اشارة من السماء اليه لكى لا يمضى فى الطر يق الخطأ . فقلت له :

ــ ما رأيك .. تفتش فى ذاكرتك عن واقعتين مماثلتين ، لهما نفس المغزى ، وننشرها فى (المصور) مع الواقعة الأولى تحت عنوان :

(ثلاث قصص من حياتي : بقلم صلاح سالم) و بذلك تصبح القصة الأولى ردا غير مباشر على اولئك الذين يتقولون عليك بحكاية لعب الورق كل ليلة .. وحتى مطلع الفجر .. مع الأميرة فايزة .

اقتنع صلاح بالفكرة ، ومضى يعصر ذاكرته حتى عثر فيها على قصتين مماثلتين ، رواهما لى . وعندما وجدنى مقتنعا بهما . قال :

ــ تولى أنت كتابتها ، وابقى أعرضها علىّ قبل النشر .

قمت بكتابة القصص الثلاث وعرضتها عليه فى شكل (بروفات) ، فلم يغير فيها حرفا واحدا .. وكتب على (البروفات) بخط يده : (يصرح بالنشر) ثم وقع بامضائه . اذ كانت تعليمات الرقابة العامة على النشر الصادرة الى رقباء الصحف ، وقتها ، تقضى بعدم نشر أى شىء منسوب الى أى من أعضاء مجلس قيادة الثورة الا اذا كان موقعا عليه من صاحبه .

نشرت القصص الثلاث فى عدد (المصور) رقم ١٥٠٨ الصادر بتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٣ . طبعا بعد أن أطلع الرقيب على توقيع صلاح سالم ، حسبما تقضى بذلك تعليمات الرقابة العامة على النشر . .

فى نفس الاسبوع ، كنت فى زيارة لجمال عبد الناصر فى بيته . وما أن فرغت من شرب قهوتى ، حتى فوجئت به يسألنى :

— ايه حكاية القصص التلاته بتوع صالح سالم المنشورة فى المصور الاسبوع ده ؟

قلت :

— من أى ناحية ؟

قال :

— أصل أنا من يومين كان عندى هنا حسن الهضيبى المرشد العام للأخوان المسلمين . وكان غاضبا جدا من أن يقول واحد من قادة الثورة أنه مارس القمار فى يوم من الأيام . و بالصدفة بعد ماخرج الهضيبى من عندى ، جه صلاح سالم . . وكانت الحكاية لسة طازة فى دماغى ،

فسألته : ايه حكاية القصص دى يا صلاح .. وايه مناسبتها دا الوقت ؟
وكانت المفاجأة الكبيرة بالنسبة لى أننى وجدته يقول أن هذه القصص كلها من تأليفك أنت ، وأنه لم يفض اليك بشىء واحد منها .

أصابنى كلام عبدالناصر بشىء كالدوار: ماهذا الذى أسمعه ؟ وكيف .. ولماذا .. خانت صلاح سالم شجاعته ، فى مواجهة عبدالناصر ، وجعلته ينكر أنه روى لى ماروى ؟!!

هل لانه لم يرد أن يحدث عبدالناصر عن البداية التى فجرت القصص الثلاث ، وهى حكاية تقّول الناس عليه بأنه يلعب الورق ، كل ليلة ، مع الاميرة فايزة ؟

ربما ...
ولكن .. هل كان عبدالناصر نفسه لم يسمع بما يقوله الناس عن صلاح سالم ؟
ربما ...
المهم .. انتشلت نفسى بسرعة من ذلك الشىء الذى أصابنى كالدوار:
وقلت لعبد الناصر:

— المسألة فى غاية البساطة . كلف من تشاء بان يسأل رقيب (المصور) كيف .. وعلى أى أساس .. صرح بنشر قصص صلاح سالم هذه .
قال :

— أنا متأكد طبعا من أنك لم تؤلف هذه القصص . والا كان هو أول

واحد جاني وطالبني بقطع رقبتك ، على الرغم من الصداقة اللى بينك و بينه . لكن اللى أنا بدى أفهمه أيه مناسبة الحكايات دى دا الوقت ؟ !

هنا .. كان لابد مما ليس منه بد ، كما يقولون ...

رويت لعبدالناصر ، تفصيلا ، كل ماجرى بيني و بين صلاح سالم في بيته .. على مائدة الغداء . و بعد أن فرغت من روايتي . عقب عبدالناصر عليها قائلا :

— كده أبقى فهمت ...

قلت له :

— لكن فى الحقيقة ، وبغض النظر عن انكار صلاح انه هو الذى روى لى ماروى ، انا لى رأى خاص فى احتجاج الهضيبى . فأنتم ، فى أول الأمر وآخره ، بشر .. ولستم ملائكة . وأن يكون أحدكم قد أخطأ فى شبابه ، فذلك وارد بالنسبة لكم ، مثلما هو وارد بالنسبة لأى بشر يدب على ظهر الأرض . وسيدنا عمر نفسه كان يتعاطى الخمر قبل أن يصبح هذه القمة الشامخة من قمم الاسلام . ولم ينتقص من قدره ، قيد أنملة ، ما كان معروفا عنه قبل دخوله فى الاسلام .

تأملنى عبدالناصر للحظات .. ثم وضع رأسه الكبير بين يديه ، وراح ينظر نحو الأرض مفكرا : ربما فيما كنت أقوله له ... وربما فى موقف صلاح سالم نفسه .. ثم رفع رأسه بين يديه ، وقال :

— خلاص .. اكتب الكلام دا الجمعة الجاية فى (المصور) بس من غير

ماتشير لحكاية صلاح سالم .. ولا لما جرى بينى و بين المضيبى من حديث فى هذا الموضوع .

و بالفعل .. كتبت فى العدد التالى ، مباشرة ، من (المصور) ــ وهو العدد رقم ١٥٠٩ الصادر بتاريخ ١١ سبتمبر سنة ١٩٥٣ ــ كلمة تحت عنوان : (هل قادة الثورة آلهة .. ؟ !) قلت فيها ، بين ماقلت :

*** « أن الذى يجب أن يكون مفهوما أن الزعماء والقادة ، مهما كبرت اقدارهم ، ليسوا فى نهاية الأمر الا بشرا .. يمرون فى كل الادوار التى يعرفها البشر. ومن يزعم من هؤلاء القادة والزعماء أنه لم يزل فى حياته ، ولم يخطىء ، ولم يندم على ماأقترفه من خطأ .. أو أنه لم يحزن على حظ فاته ، ولم يستخفه الفرح بحظ قد واتاه ، فانه يكون زعيما كذابا لاينبغى أن نصدقه اذا تكلم .. حتى لوتمثل بالقرآن .**

« ويجب أن يكون مفهوما اكثر من هذا كله ، أنه لاينتقص من قدر القائد أوالزعيم ، مثقال ذرة ، أن يراه الناس يعترف لهم بأخطاء أوبخطايا أرتكبها فى طفولته أوفى شبابه ، فان التأثير فى المستمعين اليه أوالقارئين له ، يبلغ أقصى غايته حين يكون مايسوقه اليهم هوتجارب حقيقية مرت فى حياته ، وعاشت معه ، وعرف كيف يستخرج منها العظة ، والدرس ، والعبرة . هنا يكون التأثير أقوى مايكون .. أقوى الف مرة من كتاب كامل يأمر بالمعروف .. وينهى عن المنكر .

« لقد اعترف زعيم الهند الأعظم .. « المهاتما غاندى » .. بأنه ، فى شبابه ، أكل اللحم ــ وهى جريمة كبرى فى شرع الهندوس الذين هو واحد منهم ــ كما أعترف بأنه (سرق) . بل لقد اعترف « غاندى » بما هو أكبر

من ذلك وأخطر.. اعترف انه دخل بيتا للدعارة ليقترف فيه الخطيئة الكبرى .

ولن يستطيع أحد أن يقول أن « غاندى » قد سقط فى أنظار العالم حين عرف عنه أنه أرتكب ، فى شبابه ، هذه الخطايا أو الأخطاء . العكس هو الصحيح . ازدادت مكانة « غاندى » فى نظر الناس ارتفاعا وعلوا ، بعد ما رأوه — وقد صار زعيما مقدسا لدى قومه — يحرص على أن لا يهرب من ماضيه ، ولا مما وقع فيه من أخطاء فى شبابه .. و يصمم على أن يثبت للناس أجمعين — بالتجارب الثابتة .. وبالحقائق الثابتة .. وليس بالكلام الانشائى السخيف ، أن باب التوبة واسع .. أوسع مما يتصور الناس كلهم . بل هو واسع الى الحد الذى يمكن معه أن يتحول السارق ، والزانى ، الى روح عظيم .. الى غاندى » .

قرأ صلاح سالم هذه الكلمات فى (المصور) صباح يوم صدوره .... وفهمها . واتصل بى تليفونيا وراح يشكرنى عليها بحماس وحرارة . لكنه لم يقل لى كلمة واحدة عما دار بينه و بين عبدالناصر حول الموضوع الاصلى . ولا أنا قلت له . ولعله مات دون أن يعلم أننى عرفت أنه أنكر ، فى مواجهة عبدالناصر ، أنه افضى الى بشىء مما نشرته على لسانه .

....

....

ولكن .....

هل أنتهت ، بهذه الحكاية ، حكايات هذا « الصديق الحميم » معى ... ؟ لا .. لم تنته .

وأنما الذى أنتهى هو هذه الحكاية وحدها . أنتهت لتبدأ ، بعدها ، حكايات أخرى أشد قسوة .. وأكثر مرارة بالنسبة لى .. وربما أيضا بالنسبة له .

فلقد دعانى ، ذات يوم ، الى تناول الغداء معه فى مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيرة . وبعد أن أنتهينا من تناول الغداء ، وبينما نحن نشرب القهوة .. فوجئت به يقول لى :

ــ ما رأيك .. أريدك أن تقطع علاقتك بمحمد نجيب . ؟

صفعتنى المفاجأة ... على الرغم من أننى كنت أشعر أن بينهم كثيرين ــ على رأسهم شقيقه جمال سالم ــ لم يكونوا مستريحين لعلاقتى بالرجل .. ومع أن المعركة مع محمد نجيب كانت تدور ، أساسا ، مع عبدالناصر .. ثم ، بعد ذلك مع بقية أعضاء مجلس الثورة .. باستثناء خالد محيى الدين الذى لم تكن له ، فى يوم من الأيام ، معركة .. ولا شبه معركة مع نجيب ، الا اننى أشهد ــ لله وللحق ــ أن عبدالناصر لم يلمح لى يوما ، مجرد تلميح ، بانه يريدنى أن أقطع علاقتى بمحمد نجيب .. على كثرة ما شكى أمامى من تصرفاته معهم .

قلت لصلاح سالم .. ردا على تلك المفاجأة التى فاجأنى بها :

ــ أنت تعلم أن علاقتى بمحمد نجيب بدأت ، أصلا ، مع محمد نجيب « قائد سلاح المشاة » .. وليس مع محمد نجيب « رئيس مجلس الثورة ..

أو رئيس الجمهورية » . هذه واحدة . والثانية أننى أعلم ، علم اليقين ، أنكم تملكون من أمر محمد نجيب أكثر مما يملك هو من أمر نفسه . واذن ، فعلاقتى به انما هى علاقة صديق بصديق .. وليست علاقة صحفى بسلطة . ثم أننى أريدك أن تقلب الآية ....

تساءل محتداً :

ـ يعنى أيه .. ؟

قلت :

ـ يعنى نفترض أن محمد نجيب هو الذى فى مركز القوة ، وأنت فى مركز الضعف ، ثم جاء نجيب وطلب منى أن أقطع علاقتى بك ، فأستجبت له .. فماذا يكون حكمك علىّ . ؟

ضرب صلاح سالم المائدة التى كانت بيننا بقبضة يده . وقال :

ـ أنا ما أعرفش فى المثل العليا دى .

قلت :

ـ دى موش مثل عليا .. دى أبجديات العلاقات الانسانية بين الناس .

قال :

ـ أفهم من هذا أنك مصمم على الاستمرار فى هذه العلاقة . ؟

قلت :

ـ نعم ..

سكت صلاح سالم عن الكلام للحظة استرد ، خلالها ، بعض هدوئه .. ثم عاد يتابع حواره :

ــ فيه موضوع تانى بدى أكلمك فيه . أنت ليه ماعدتش بتتردد علينا زى ماكنت السنة اللى فاتت . ؟ أنت موش زى فلان (وذكر صلاح سالم أسم صحفى زميل صار كبيرا جدا فيما بعد) أهو حاطط نفسه تحت رجلينا .

قلت :

ــ أولاً .. أنا كنت فى قمة الارتباط بكم حينما كنتم «ثورة» . أما الآن ، فقد أصبحتم « سلطة » . وربما يكون من عيوبى التى لا أخجل من الاعتراف بها أننى لا أجيد فن الاقتراب من « السلطة » . ثم أننى ، بالتأكيد ، لست كزميلى « فلان » . فهو من « عشاق السلطة » .. ولانه من عشاقها ، فليس لديه مانع من أن يضع نفسه ، فى سبيلها ، تحت أرجلكم .. كما تقول . أما أنا فلا أستطيع . طبيعتى لن تطاوعنى .

فقال صلاح سالم .. منهياً الحديث :

ــ طيب .. خللى البرج العاجى اللى أنت حاطط نفسك فيه يبقى ينفعك . !!

....

....

.... ودارت الأيام

وتركت منصب مدير التحرير فى مجلة « المصور » .. وعينت رئيسا لتحرير مجلة (التحرير) .وذات يوم من أيام شهر أغسطس سنة ١٩٥٤ ،

أرسل لى صلاح سالم ــ وكان قد عاد لتوه من جولة سياسية فى كل من العراق وسوريا ولبنان ــ مايقرب من ثلاثين صورة لهذه الجولة السياسية طالبا نشرها بالمجلة . ولما لا .. أليست هى « مجلة الثورة » . ؟!

ولكن مطلب صلاح سالم كان مستحيل التحقيق من الناحية الصحفية ، مثلما كان مستحيل التحقيق من الناحية السياسية . فمن الناحية الصحفية كان معنى نشر مايقرب من ثلاثين صورة لشخص واحد .. فى عدد واحد ــ أيا كان هذا الشخص ــ أن يصبح هذا العدد من المجلة ، « عددا خاصا » به . ولن يكون هذا عملا معقولا ، ولا مقبولا . هذا من الناحية الصحفية . أما من الناحية السياسية ، فقد رأيت أن مطلب صلاح سالم مستحيل التحقيق لانه يضره شخصيا ، قبل أى أحد غيره . وخاصة لدى زملائه أعضاء مجلس الثورة الذين كانوا قد بدأوا يتنبهون لبعضهم البعض .. و يترصدون الأخطاء لبعضهم البعض .

وترتيبا على هاتين القناعتين ، أخترت أحسن عشر صور فى مجموعة الصور التى أرسلها لى ونشرت أحداها على غلاف المجلة ، ونشرت الباقى بداخلها .. على صفحتين متقابلتين .

وصدرت المجلة . ورآها صلاح سالم ، فجن جنونه ... اذ كان ، فى هذه الفترة الزمنية بالذات ، قد وصل الى ذروة الافتتان بنفسه . وعندما حان موعد الاجتماع الأسبوعى لمجلس قيادة الثورة ، ذهب اليه وليس فى « أجندته » غير موضوع واحد : اما هو فى مجلس الثورة .. وأما أنا فى مجلة التحرير . !!

وقال فى تبر ير طلبه : أنه تأكد له أننى أحاربه . !!

وسأله عبد الناصر مندهشا :

ــ يحاربك .. كيف ؟ !

وردا على تساؤل عبد الناصر .. راح صلاح سالم يروى قصة مجموعة الصور التى أرسلها لى لكى أنشرها كلها ، فلم أنشر منها غير عشر فقط . ثم تساءل : اذا لم يكن هذا دليلا على أن (فلان) يحاربنى .. فما هو الدليل اذن ؟

وعندما أفرغ صلاح سالم كل مافى جعبته ضدى . قال له عبد الناصر :

ــ تعرف يا صلاح .. لو كان فلان بيحاربك صحيح زى أنت ما بتقول ، كان نشرلك كل الصور اللى أنت بعتها له . لأنه ما كانش فيه حاجة تضرك اكثر من كده .

ولكن صلاح سالم ركب رأسه ، وازداد اصرارا على مطلبه ، ورفض كل محاولة من جانب زملائه لتهدئته .. أو لتذكيره بالصداقة التى بيننا . هكذا كان هو .. حين يغضب ، لا يعرف غضبه حدوداً يتوقف عندها ، ولا يعرف هو نفسه أن يفرق ، وقت غضبه ، بين عدو وصديق . !!

ولم يكن هناك مفر .. أنحنى عبد الناصر الذى بدأ ، من اللحظة الأولى ، غير مقتنع بحيثيات صلاح سالم ــ أنحنى للعاصفة ، ووافق على منحى « أجازة مفتوحة » الى أن يهدأ « صلاح سالم » .

بقيت فى هذه « الاجازة المفتوحة » ثمانية أشهر ، قبل أن يتدخل فى الأمر عبد اللطيف البغدادى ــ وكان واحدا من أحب أعضاء مجلس

الثورة الى قلبى .. لصفات كثيرة كنت أقدرها فيه ـــ و ينجح فى عقد مصالحة بين صلاح سالم و بينى .

وحين ذهبت اليه فى مكتبه بوزارة الارشاد ، استجابة لطلب البغدادى .. قفز من فوق مقعده ، وراح يعانقنى و يبكى . أيضا هكذا كان هو .. يحمل بين جنبيه قلبا نقيا كقلوب الأطفال ، ولم يكن هناك مايعيبه سوى أنه كان يترك نفسه يجرى ـــ و باندفاع جواد محموم ـــ فى الطريق الخطأ .. ثم يعود فيمزقه الندم . !!

وفى هذا اللقاء نفسه .. عرض علىّ صلاح سالم أن أتولى رئاسة تحرير مجلة « الاذاعة » . وقال أنه يريدنى أن أطوّرها وأحولها الى مجلة شاملة تصبح « برامج الاذاعة » جزءا منها ، وليست كل المجلة كما كان الحال وقتها . فطلبت منه مهلة للتفكير . وكان قصدى من وراء طلب هذه المهلة ، أن أرجع الى عبدالناصر لكى ينقذنى من هذه الورطة .. ورطة الاحتكاك المباشر برجل لا اختلاف ، بين أثنين ، على أنه ـــ و بكل المقاييس ـــ « قنبلة موقوتة » .. وليس فى كل مرة ، كما يقولون ، تسلم الجرّة .

وذهبت الى عبدالناصر . أخبرته بما عرضه صلاح سالم ، علىّ وصارحته بمخاوفى من العمل المباشر معه .

فقال لى :

ـــ ليس أمامك الا أن تقبل هذا العرض ، لانك لو رفضته فسوف يتصور ، على الفور ، أننى أنا الذى أوعزت اليك بهذا الرفض . فربما

لا تعرف أنه صارح بعض الزملاء فى المجلس بانك كنت تحاربه لحسابى . توكل على الله وروح أعمل له المجلة زى ماهوعايز .

لا خيار اذن .. فتوكلت على الله ، وقبلت العمل مع صلاح سالم رئيسا لتحرير مجلة « الاذاعة » . لكننى كنت ، فى كل خطوة أخطوها ، دائم التوجس والتحسب : متى سيقع الانفجار .. وأين .. وبسبب ماذا ؟

ولكن الله كان لطيفا بى .. فلم يستمر صلاح طويلا فى منصب وزير الارشاد ، بعد أن توليت رئاسة تحرير مجلة « الاذاعة » . فلقد أخطأ كعادته .. وكان خطؤه ، هذه المرة قاتلاً، ارتطم بمجلس الثورة نفسه . وكالعادة ، أفلتت منه أعصابه — وبكل العنف الذى كان يلازمه حين تفلت منه أعصابه — راح يقذف بالتهم فى وجه عدد من زملائه اعضاء المجلس . حتى تهمة « الخيانة » لم يرد نفسه عن أن يوجهها الى بعضهم . وجهها الى زكريا محيى الدين ، والى أنور السادات ، والى على صبرى الذى كان ، وقتذاك ، يشغل مدير مكتب عبدالناصر للشئون السياسية .

وهكذا .. وبضربة واحدة — ووحيدة — دمر صلاح سالم كل الجسور التى كانت ممتدة بينه وبين « رفقاء العمر » .. و« رفقاء الساعة » .. ساعة الصفر التى كانت فرصة الموت فيها ، أقرب اليهم ألف مرة من فرصة الحياة . !

وهكذا أيضا .. و بسرعة الجواد المحموم ، إنحدر صلاح سالم من القمة الى السفح .. وغاب فى الظلام !

ولكن ....

ما الذى قاد صلاح سالم ، بالذات ، الى هذا السقوط السريع من سماء الثورة التى كان يعتبر ، فى وقت من الأوقات ، ألمع نجومها . ؟

لم يكن صلاح سالم ، بالتأكيد ، غبيا . بالعكس ، كان متوقد الذكاء .. باعتراف أعدائه قبل أصدقائه . وأرجح الظن عندى أنه ، بسبب هذا الذكاء المتوقد نفسه ، جاءه ذلك السقوط السريع الى السفح من القمة . اذ كان يعتقد ، فيما بينه و بين نفسه ، أنه أشد زملائه ذكاء .. واكثرهم قدرة على مخاطبة الجماهير . ولقد ساقت له الظروف مواقف ، نجح ــ لحسن حظه .. أو ربما لسوء حظه ــ فى أن يثبت فيها نفسه . وكان من شأن هذا النجاح أنه أشعل لديه احساسا هائلا بالتمايز . ومن هنا .. من هذا الاحساس الهائل بالتمايز ، كثر تندره على عدد من زملائه ، وربما على كل زملائه . كما كثرت سخريته منهم ، والتهكم عليهم ، فى غيابهم .. وفى حضورهم أيضا . ولان صلاح سالم كان سريع الغضب .. شديد الفوران .. ولان أعصابه كانت فوق جلده ، وليست تحت جلده كسائر الناس ، فقد كثرت ــ بالتالى ــ أخطاؤه على الصعيدين الشخصى والعام . وراح يفقد ، مع كل يوم ، صديقا قديما ، ليستبدله بعدو جديد . !!

فهل هى « السلطة » الهائلة ، والمفاجئة التى وجدها بين يديه ، ذات صباح ، هى التى فعلت به هذا ؟ أم أن غياب التجربة الحياتية

العريضة ، والعميقة ، مع الناس والحياة .. هو الذى أورده — وهو المتوقد الذكاء — موارد الهلاك ؟

أحد الامرين وارد ، وكلاهما وارد أيضا .

....

....

زرته ، ذات يوم فى بيته بالزمالك .. بعد أن كان قد أنحدر الى السفح من القمة . وأنفض الناس — كل الناس — من حوله ، وأصبح « جرس التليفون » لا يرن فى بيته الا عن طريق الخطأ — على حد قوله — فوجدته ، حين دخلت عليه ، يجلس وحيدا كاسف البال ، وقد أسند خده الى قبضة يده .. وكأنه تمثال حى للحزن . فقلت له مستفسرا :

— خيرا .. أراك مهموما جداً ، فهل حدث جديد . ؟

وما أن انتهيت من سؤالى حتى أنفجر قائلا :

— أصحابك اللى فى مجلس الثورة قربوا يجننونى . تصور .. واحدة من بناتى جتنى النهاردة ومعها كتاب « التربية القومية » المقرر عليها ، وسألتنى : أنت يابابا موش كنت عضو فى هيئة المفاوضات اللى عملت اتفاقية الجلاء مع الانجليز؟ أجبت ابنتى : طبعا كنت .. فقالت : طيب ليه موش كاتبين أسمك فى الكتاب مع بقية أسماء زملائك اللى وقعوا على الاتفاقية ؟ أخذت الكتاب من يد ابنتى ، ورحت أنظر فيه وأنا لا أكاد أصدق عينى : إلى هذا الحد يمكن أن تصل بهم الأمور. أيمكن

أن تصل بهم الأمور الى حد حذف أسمى من صفحة من صفحات التاريخ . دا تاريخ يا ناس وموش من حق أى مخلوق أنه يغير فيه حرف واحد .

قلت له ، فى محاولة لتهدئته والتخفيف عنه :

ــ على كل حال .. ليست هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها شىء كهذا . (وكنت ، بهذا القول ، ألمح الى ماجرى مع محمد نجيب من حذف أسمه من كل شىء .. وليس من كتب التاريخ فحسب) . فأنا لا أتصور مطلقا أن يكون واحد من زملائك فى مجلس الثورة هو الذى أمر بحذف أسمك من قائمة هيئة المفاوضات التى أثبتها هذا الكتاب . انما هى صغائر الصغار الذين تصور لهم أوهامهم المريضة أنهم يرضونهم بمثل هذه التصرفات الصغيرة .. أو الحقيرة ــ سمها ماشئت . لكننى أريد أن أسألك : هل لو كنت ماتزال عضوا فى مجلس الثورة .. أكنت ستجد لديك الوقت والجهد اللذين يمكنانك من مراجعة كل كتب التربية القومية المقررة على طلبة المدارس فى مختلف مراحلها ، لترى مدى التزامها بجانب الدقة والأمانة فى تسجيل التاريخ . ؟ أرجوك .. خفف عن نفسك ، وثق من أن للتاريخ رجاله الذين سوف يسجلونه يوما ما على وجهه الصحيح .. وبكل الدقة والأمانة .

فقال ساخرا :

ــ هم فين دول .. دلنى عليهم .

قلت :

ــ تأكد أنهم موجودون . فقط ، لا تشغل أنت بالك بهذه الاشياء التى لن تجنى من ورائها غير المزيد من الهموم .

وتركته ، بعد أن كان الحديث بيننا قد تنقل بنا فى مجالات شتى ، وعدت الى مكتبى فى مجلة « الاذاعة » . كان فوق المكتب مظروف كبير مكتوب عليه أسمى . وتحته عبارة : (مع تحيات .. عبدالرحمن الرافعى) . فضضت المظروف ، فوجدت بداخله كتاب المؤرخ الجليل عن ثورة ٢٣ يوليو. أمسكت بالكتاب ، ومضيت أقلب صفحاته لكى أصل ، بسرعة ، الى الصفحة التى تناول فيها المؤلف مفاوضات الثورة مع الانجليز للجلاء عن مصر .

لم أكن مخطئا ، أبدا ، عندما قلت لصلاح سالم أن للتاريخ رجاله الذين سوف يسجلونه يوما ما ، وبكل الدقة والأمانة . فها هو الاستاذ الجليل عبدالرحمن الرافعى يثبت أسم صلاح سالم ضمن أسماء بقية زملائه أعضاء هيئة المفاوضات الذين وقعوا اتفاقية الجلاء ، ولم يحذفه من قائمة الأسماء ، مثلما فعل مؤلفو كتاب وزارة التربية والتعليم .

أخذت كتاب عبدالرحمن الرافعى وعدت الى بيت صلاح سالم . فوجدته مايزال جالسا متلفعاً بحزنه .. فى نفس المكان الذى تركته فيه . لم يستطيع أن يخفى دهشته من عودتى المفاجئة ، وأعرب عن هذه الدهشة بقوله :

ــ خير .. جرى حاجة ؟

قلت :

ـ جرى كلّ خير...
ومددت له يدى بكتاب المؤرخ الجليل ــ قائلا :

ـ علشان تصدق أن للتار يخ رجاله .

تناول صلاح سالم الكتاب فى لهفة ظاهرة ، وراح يقلب صفحاته حتى أستقر عندما جاء به عن مفاوضات الجلاء ، وما أن رأى أسمه مسجلا مع أسماء زملائه ، حتى سقط عنه حزنه وأشتملته فرحة لم يستطع أن يداريها .

وقال :

ـ عندك مانع تترك لى الكتاب علشان أوريه لبنتى ؟

قلت :

ـ بالعكس .. فأنا ماجئت اليك مرة أخرى الا لهذا الغرض .

وتركت صلاح سالم مع كتاب الرافعى ، عائدا الى مكتبى .. وأنا أردد لنفسى : من كان يتصور أن هذا الرجل الذى كان ، حتى الأمس القريب جدا ، ملء أسماع الناس وأبصارهم .. وتكاد وكالات الأنباء العالمية لا تكف ، ليل نهار، عن ترديد أسمه ــ أضحى لا يكاد يصدق عينيه حين رأى هذا الأسم مسجلا فى صفحة من كتاب . !!

أجل .. من كان يتصور؟ !!

لكنها الدنيا التى وصف « شوقى » أحوالها أبلغ وصف .. وأدق وصف .. فى هذين البيتين من الشعر:

انما الـدنـيـا شـجـون تـلـتـقـى   وحــزيــن يـتــأســى بحــزيــن
أبـتـسـام الـدنـيـا احـتـشـاد للبكا   وأغــانيهــا مــعــدات الأنين

نعم ....

فلكم ابتسمت الدنيا لصلاح سالم .. ولكم غنت له .. فكان أن جاءه بكاؤها وأنينها ، فى مثل حجم إبتسامها وغنائها . !!



فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .. وفى مأدبة عشاء أقامها الكاتب بمنزله لعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة ــ التقطت هذه الصورة التى يظهر فيها ، الى اليسار ، قائد الجناح عبداللطيف البغدادى . بينما ظهر ، إلى اليمين ، الصاغ كمال الدين حسين . وتوسطهما الكاتب .

الفصل السادس :

شيء من الخوف .. مع البغدادى !

كل القنوات ، كما قلت فى فصل سبق ، كانت تفضى بى الى « الضباط الأحرار» .. وتفضى بهم الّى ، حتى لقد تسرب الظن الى كثيرين ، فى وقت ما ، أننى « ضابط » أو أننى ، على الأقل كنت ضابطا .. ثم تركت العسكرية الى الصحافة .

ولم يكن فى هذا الظن الذى تسرب الى كثيرين شيء كثير ولا قليل من الصحة . كل ما هنا لك أننى كنت ، يوما ما ، « موظفا مدنيا » بادارة الشئون العامة للقوات المسلحة . وكان مدير هذه الادارة ، وقتما كنت موظفا بها ، ضابطا به قدر غير قليل من « الطراوة » التى لا تتفق وطبيعة العسكريين ، بالاضافة الى قدر كبير من « الحذلقة » التى كان يتصورها ضرورية لمن كان « متعالما » مثله . ومن هنا كرهت هذا المدير. ولاننى كرهته ، فقد كرهنى هو الآخر. وكرهنى اكثر.. واكثر.. عندما لحظ أن هناك خيطا من الود بدأ ينشأ بينى وبين نائبه الذى رأيت فيه فلاحا مصريا صميماً .. بكل ما فى الفلاح المصرى من رجولة ، وبساطة ، ووضوح .

أو تدرى من كان هذا « الضابط » الفلاح المصرى الصميم الذى شدتنى اليه رجولته و بساطته ووضوحه ؟

كان هو (البكباشي محمد رشاد مهنا) الذى عينته ثورة ٢٣ يوليو ثالث ثلاثة أوصياء على الملك الطفل أحمد فؤاد الثانى ، بعد خلع أبيه الملك فاروق من على العرش .. وقبل اسقاط النظام الملكى نهائيا فى ١٨ يوليو ١٩٥٣ ..

لكن الثورة مالبثت أن أصطدمت بممثلها فى هيئة الوصاية على الملك الطفل .. وما لبث هو أن أصطدم بها . ولم يكن هناك مفر من النتيجة الحتمية لمثل هذا الصدام .. حاكمت الثورة (رشاد مهنا) ، وحكمت عليه بالسجن المؤبد .. ثم عادت ـــ كعادتها ـــ فأفرجت عنه افراجا صحيا .. ولم يسمع له ، بعد الافراج عنه ، حس .. ولا خبر . اختار الرجل ، بارادته ، أن يسقط فى بئر النسيان .

وكأنما خشى ذلك المدير الطرى المتحذلق ، أن يتحول خيط الود الذى لمحه ينشأ بينى وبين (رشاد مهنا) ـــ وكان يكرهه مثلما كرهنى ـــ فيصبح حبلا يشدنى الى (رشاد مهنا) .. و يشده الّى ، فطوح بى الى ادارة أخرى من ادارات وزارة الحربية ، لم البث بها الا قليل .. ثم استقلت منها لأتفرغ ـــ تماما ـــ للعمل بالصحافة . وكان ذلك فى سنة ١٩٤٤ .

الشىء الغريب ، حقيقة ، أننى حينما كنت موظفا بوزارة الحربية ـــ وهى بؤرة الضباط ـــ لم يكن لى صديق واحد من بينهم . الوحيد الذى خرجت به صديقا حميا من عملى فى تلك الوزارة ـــ وربما لانه كان أدبيا

وفنانا .. الى جانب عسكرية متفوقة ــ كان المرحوم الشهيد البكباشي أحمد فهيم بيومي الذى كان مدرسا بكلية أركان الحرب ، وقت أن قامت أول الحروب بيننا و بين اسرائيل فى سنة ١٩٤٨ .. ومن جبهة القتال ، استدعاه ــ و بالأسم ــ اللواء أحمد فؤاد صادق القائد العام للقوات المصرية ليعمل معه .. والى جواره .. ثقة منه بعلمه وخلقه و كفاءته . ولكنها لم تكن غير أيام معدودات ــ وللقدر تصاريفه التى تحير الأفهام ــ انتقل بعدها ، أسم (أحمد فهيم بيومى).من قائمة الضباط المعاونين للقائد العام ، الى قائمة شهداء الميدان . وكأنما كان هو.. والموت .. على موعد أن يلتقيا هناك . ولم يكن القائد العام غير مجرد رسول بينهما . !!

الشىء الغريب أيضا أن هذا الصديق الوحيد الذى خرجت به من عملى فى وزارة الحربية ، كان مدرسا لدفعة كلية أركان الحرب التى تخرج فيها ثلاثة من قادة الثورة : جمال عبد الناصر .. وعبد الحكيم عامر .. وصلاح سالم الذى جاء ترتيبة (الأول) على هذه الدفعة . ومن المؤكد أنه لو كان العمر قد أمتد بالشهيد فيهم بيومى ، لكان قد عرفنى عليهم .. وعرفهم على .. فطالما حدثنى عنهم بصورة تشى بأن ثمة رباط متين يربطه بهم . !!

كل القنوات ، كما أسلفت ، كانت تفضى بى الى (الضباط الأحرار) .. وتفضى بهم الّى . وكأنما كان هناك تصميم من القدر أن التقى بهذه المجموعة من الرجال ، وأن يلتقوا بى .. وأن يكون لى فى مسارهم أثر ، وأن يكون لهم فى مسارى آثار .. بل أخطر الآثار . وهل هناك ماهو أخطر من اكون أنا ــ وأنا بالذات ــ أول صحفى ، فى

مصر، تعطى له (أجازة مفتوحة) من عمله على يد واحد منهم ؟ !! ثم .. هل هناك ماهو أخطر من أن أكون أنا ــ وأنا بالذات ــ أول صحفى فى مصر، يحال الى المعاش وهو لم يزل بعد، فى الرابعة والأربعين من العمر.. بقرار من (زعيمهم) ؟!

لا أقول مع القائلين أنه (الجحود) . ولا أقول مع القائلين أنه (عدم الوفاء) . وانما أقول أنها (الدسائس) .. وأنهم (الدساسون) وشكرا لها .. ولهم .. على أية حال ، أن اكتفوا بالتوقف عند هذا الحد ، ولم يفكروا فى العمل على الذهاب بى الى ماهو أبعد ، فأن للدساسين قدرات تتجاوز كل حدود .. وقد تجاوزتها ، بالفعل ، مع أكثر من صديق وزميل !!

ما علينا .. فلندع (الألم) مستريحا .. ولندع (الجرح) نائما .. ولنكمل قصتنا .

ذات يوم من أيام سنة ١٩٥٠ ــ اتصل بى ضابط طيار كان ، أساسا صديقا لأخى .. ومن ثم ، صار صديقا لى .. وقال لى : ان مجموعة من زملائه الضباط فى سلاح الطيران طلبوا اليه أن يعرفهم بى . كان هذا الضابط هو (قائد الجناح عبدالحميد الدغيدى) الذى صار فيما بعد ، قائدا للقوات الجوية المتقدمة فى سيناء فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد حوكم ، بعد الهزيمة ، أمام محكمتين عسكريتين مختلفتين ، أصدرت كلتاهما حكمها ببراءته من المسئولية عن تلك الضربة الجوية الغادرة التى نزلت بقواتنا الجوية صباح ذلك اليوم المشئوم .. الخامس من يونيو ١٩٦٧ .

وكان (عبد الحميد الدغيدى) ، فيما عرفت بعد ذلك ، واحدا من مجموعة (الضباط الاحرار) فى سلاح الطيران .. وهى المجموعة التى كان يقف على رأسها ، ومنذ سنة ١٩٤٢ ، قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى .

ذهبت مع (الدغيدى) لأتعرف على زملائه الضباط الذين طلبوا منه أن يعرفهم بى . كانوا ثلاثة : قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى ، وقائد الأسراب حسن ابراهيم . وقائد الجناح المرحوم محمد شوكت الذى شغل ــ بعد قيام الثورة ــ منصب مدير مكتب القائد العام ، اللواء محمد نجيب ، لشئون الطيران . كان اللقاء فى بيت البغدادى الذى دخلت به الى قلبى ، ومنذ اللحظة الأولى التى عرفته فيها ، قوة بادية فى شخصيته .. ورصانة غير مصطنعة ولا متكلفة .. وهدوء يخفى وراءه حماسة وطنية متأججة .

فى ذلك اللقاء .. أخذ البغدادى المبادأة . فحيانى ، وحيا ما كنت اكتبه فى (المصور) عن الفساد فى الجيش .. وفى الدولة .. ووصف هذه الكتابات بأنها « تعبير صادق ، أشد ما يكون الصدق ، عن مشاعر الضباط الوطنيين فى القوات المسلحة » . وأضاف البغدادى : « أن لدينا فى سلاح الطيران فسادا نريد الخلاص منه ، والقضاء عليه . ولن يكون ذلك ميسورا طالما بقى الرأى العام نائما عما يجرى فى سلاح الطيران . لقد قلنا ، داخل السلاح ، كثيرا . ونبهنا كثيرا . وكتبنا لمن يسمونهم المسئولين كثيرا . ولكن لا حياة لمن تنادى . وعلى ذلك ، استقر رأينا على أن ننقل المعركة الى خارج السلاح .. الى الرأى العام .. فلعلهم عندما

يشعرون أن الشعب بدأ يعرف حقيقة مايجرى داخل سلاح كسلاح الطيران ، يتحركون لعمل شيء يخلصنا من كل ذلك الذى نعانية » .

ومضى البغدادى يتابع كلامه :

« والحقيقة أننا كنا قد فكرنا فى اكثر من كاتب لكى يتبنى أحدهم معركتنا . ولكن الاجماع استقر عليك . وكان من حسن الحظ أننا عرفنا من الدغيدى أنه صديقك ، فلم تعد أمامنا مشكلة : كيف نتصل بك . فاذا وافقت على الوقوف معنا فى هذه المعركة ، جئنا اليك — من الغد — ومعنا كل وثائقنا . ومستنداتنا » .

وجاء الغد .. وجاءوا .. وبدأت المعركة .

مضيت — ابتداء من العدد رقم ١٣٥٥ الصادر فى ٢٩ سبتمبر ١٩٥٠ من مجلة (المصور) فى نشر سلسلة من المقالات تحت عنوان : (من المسئول عن هذه المآس فى سلاح الطيران ؟) . واستهللت الحلقة الأولى من هذه السلسة من المقالات ، بمقال قلت فيه :

*** « الذين قالوا أن مصر بلد العجائب لم يكذبوا . ولو أن العمر كان قد أمتد بالمتنبى حتى الآن ، لقصر شعره كله على مآسينا .. ولنظم عشرات القصائد فى (مضحكات مصر المبكيات) . وأى ضحك أمعن فى الألم من أن تدفع مصر مايقرب من خمسين ألف جنيه ثمنا لسبع وعشرين طائرة من طائرات التعليم ، وعندما تصل هذه الطائرات الى مصر .. يكتشف خبراء الطيران أنها قد تصلح لكل شيء .. الا التعليم . !!**

«أما كيف أشتريت هذه الطائرات، بينما هى لا تصلح للغرض الذى من أجله أشتريت .. ومن ذا الذى أقر مواصفاتها .. ومن ذا الذى حمل مصر المسكينه ثمنها الذى يبلغ عشرات الآلاف من الجنيهات .. وما هى مصلحته الظاهرة أو الخفية فى كل هذا ؟ !! فذلك هو ما نطالب المسئولين فى وزارة الحربية، وفى غير وزارة الحربية، بالبحث عنه .. وبالتوصل اليه— هذا اذا كان لا يزال فى مصر مسئولون تهمهم مصر .. وتهمهم أموالها التى تبدد فى الهواء».

* * *

وبعد أن أوردت تفاصيل هذه الصفقة الشائنة. وأيضا بعد أن سقت فقرات بكاملها من تقارير خبراء الطيران عنها، وهى التقارير التى لم يكترث بها احد من المسئولين فى سلاح الطيران، ولا أحد من المسئولين فى وزارة الحربية. أختتمت هذه الحلقة من سلسلة مقالاتى بقولى :

* «... وبكل بساطة طوى الأمر وكأن شيئا لم يحدث. طوى الأمر وكأنما ليست هناك عيون ترى .. ولا آذان تسمع .. ولا شعب فى مقدوره أن يطالب بالحساب .. وبالعقاب. !!

«وليس هناك ماهو أمعن فى الاثم من مثل هذا الظن. فلقد أصبحنا وكلنا عيون ترى .. وآذان تسمع .. وأصوات ترتفع مدوية مطالبة بالحساب وبالعقاب.

«نحن نطالب بمحاسبة الذين اشتروا هذه الطائرات. نطالب بمحاسبة الذين صنعوا هذه المآساة .. وأيضا الذين سكتوا عليها، وأغمضوا عنها عيونهم، وطووا— فى السر— أمرها مثلما يطوى أمر طائرات يلهوا بها الأطفال.

« وإذا لم يتحرك المسئولون فى وزارة الحربية للقيام بهذا الحساب الذى يفرضه عليهم الواجب الشخصى، والواجب العسكرى، والواجب الوطنى ــ أقول اذا لم يتحرك المسئولون فى وزارة الحربية بدافع من أى هذه الواجبات الثلاثة، فاننا لن نفقد الأمل ... سيظل لدينا الأمل فى ذلك المصرى الوطنى الشجاع ... النائب العام ».

....

....

وما أن نشرت هذه الحلقة الأولى من سلسلة مقالاتى عن (الفساد فى سلاح الطيران) حتى هاجت الدنيا وماجت فى دوائر وزارة الحربية .. وفى دوائر سلاح الطيران .. وفى دوائر المخابرات !! ولكن .. بدلا من أن يتحرك المسئولون فى كل تلك الدوائر للبحث عن جذور هذا الفساد ــ بدأت (عيون الأفاعى) ترصد (الرجال) الذين أتجهت اليهم الشبهات فى أنهم يقفون ورائى بالوثائق .. وبالمعلومات .. والمستندات . ولم أسلم أنا نفسى من (عيون الأفاعى) هذه . ومن هنا ، بات حتما علينا ــ مجموعة الرجال الذين كانوا يقفون ورائى ... وأنا ــ أن نلاعب (عيون الأفاعى) هذه (لعبة القط والفأر) . فبعد أن كان هؤلاء الرجال يأتون إلى بيتى جهارا .. نهارا قبل أن أبدأ فى نشر الحلقة الأولى من سلسلة مقالاتى هذه ــ أصبح مفروضا عليهم ، بعد اذ بدأت فى النشر ، ان يتخذوا من الليل ستارا يتخفون وراءه عند اتصالهم بى .. وأيضا عند أتصالى بهم . وتم الاتفاق بيننا على أن يكون أسم كل

منهم ، عند الاتصال التليفونى بى هو (محمد) .. تحسبا للرقابة على التليفونات .

وذات ليلة قارسة البرودة من ليالى شتاء سنة ١٩٥٠ ، اتصل بى (محمد) منهم . وفى هذه المرة ، كان هذا (المحمد) هو قائد الجناح البغدادى .

تم هذا الاتصال عقب ظهور الحلقة الرابعة فى سلسلة هذه المقالات وطلب منى البغدادى أن أنزل للقائه . وحدد لى مكان اللقاء : محطة الاوتوبيس المواجهة لمبنى كلية أركان الحرب بشارع الخليفة المأمون . وقال أنه سوف ينتظرنى هناك فى سيارته الخاصة .

عرفت زوجتى مضمون المكالمة ، فركبها منه خوف شديد . قالت : الساعة الآن العاشرة مساء . فهل من المعقول أن تنزل من بيتك ، فى عز البرد .. فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

قلت لزوجتى : بل هو معقول جدا بالنسبة لعيون الأفاعى التى تترصدهم .

وكان معنا ، فى تلك الساعة ، صديق للأسرة . فقالت له زوجتى : أرجوك يا أستاذ مختار أسبقه الى محطة الأوتوبيس هذه ، والتقط رقم السيارة التى سوف يركبها . حتى اذا لم يعد ــ ألف لا قدر الله ــ كان معنا طرف خيط نبدأ من عنده .

قلت لزوجتى : لاتجسدى الوهم لنفسك . فالأمر ليس كما تتصورين .

قالت : مين يعرف ؟ على كل حال أنا مصممة على أن الاستاذ مختار يسبقك و يلتقط رقم السيارة .

سبقنى الصديق الى مكان اللقاء — وكان قريبا جدا من بيتى — ثم لحقت به و وقفت الى جواره وكأن أحدنا لا يعرف الآخر. وان هى الا لحظات حتى توقفت أمام محطة الاوتوبيس سيارة البغدادى . كانت سيارة (سيتورين) سوداء . وكان هو الذى يقودها بنفسه .. بينما جلس الى جواره قائد الأسراب حسن ابراهيم الذى مد يده الى باب السيارة الخلفى ففتحه قائلا : اركب بسرعة .

....

....

و بسرعة ركبت .. و بسرعة اكبر استدار البغدادى بسيارته فى اتجاه مصر الجديدة . كان البغدادى ، فى ذلك الوقت ، يسكن فى بيت يقع فى أحد الشوارع المتفرعة من ميدان (تريومف) . والمفروض ، كما فهمت منه ، أننا كنا متوجهين الى بيته . لكننى أخذت ألاحظ انه لم يتخذ المسار الطبيعى المؤدى الى البيت .. وانما أتجه الى صحراء مصر الجديدة التى كانت ، وقتها ، خالية تماما من كل أثر للعمران الذى نراه فيها

الآن ، وأخذ يوغل فيها . واستطعت ـ لبعض الوقت ـ أن اتذرع بالشجاعة . لكن هذه الشجاعة بدأت تتخلى عنى شيئا فشيئا .. كلما ازداد توغل سيارة البغدادى فى قلب الصحراء !!

هاجمتنى الهواجس .. هل يمكن أن يكون هؤلاء (الرجال) قد خشوا ، فيما لوقبض علىّ .. أو حقق معى بسبب قيامى بنشر هذه السلسلة من المقالات ، أن أشى بهم .. أو أن اكشف أمرهم .. فقرروا التخلص منى ؟

كل شىء فى مثل هذه الظروف وارد . ولكن .. هل كان قلب زوجتى يحدثها بما سوف يقع عندما أصرت على أن يقوم صديقنا بالتقاط رقم السيارة التى سأركبها ؟ !

وأفسحت الشجاعة الطريق للخوف ، فركب عقلى .. ونفسى .. وكافة مشاعرى . عندئذ ، توجهت للبغدادى بالسؤال :

ـ احنا رايحين فين بالضبط ؟

وكأنما أدرك البغدادى بذكائه الرصين حقيقة الهواجس التى

اقتحمت رأسى ونفسى . فقهقه ضاحكا . وقال :

ـ أنت خفت . ؟

قلت .. مصطنعا الشجاعة :

ــ لاخفت ولا حاجة .. بس المفروض أن أحنا رايحين بيتك . وأنا شايف أن دى موش سكة بيتك .

ضحك البغدادى اكثر .. وقال :

ــ الحكاية ببساطة .. ان البوليس الحربى التابع لسلاح الطيران منتشر فى شوارع مصر الجديدة . وكلهم يعرفونى و يعرفوا عربيتى . وجايز يطلع فيهم واحد يعرفك .. تبقى داهية . وعلشان كده أخترت أروح البيت من الباب الخلفى لمصر الجديدة . ثم أضاف : ماتخافش .. موش حانموتك . !!

....

....

وصلنا الى بيت البغدادى .. من الباب الخلفى كما قال . وجلسنا

ــ هو وحسن ابراهيم وأنا ــ نتدارس وثائق ومستندات الحلقات القادمة فى سلسلة مقالاتى .. الى أن أنتصف الليل .

ومن الباب الخلفى أيضا .. عدنا متوجهين الى بيتى فى منشية البكرى . ولكن بلا خوف هذه المرة . وعندما أصبحنا أمام مبنى كلية المعلمين . أوقف البغدادى سيارته . وقال موجها كلامه لى :

ــ انزل هنا يا بطل .. وكمل لحد البيت على رجليك .

نزلت من سيارة البغدادى .. ومعى مستندات (الرجال) ، ومعلوماتهم ، ووثائقهم ، فلما صرت تحت بيتى ، نظرت فوجدت زوجتى

مطلة من (الفرانده) وقد لفت نفسها ببطانية من الصوف أتقاء لذلك البرد القارس الذى تميزت به تلك الليلة من ليالى شتاء سنة ١٩٥٠ .
كان واضحا أن مطارق القلق كانت تطحن رأسها . وكان لها كل العذر، أن تركت القلق يطحنها . فلم يكن لديها ، منذ البداية ، أمل كبير فى أننى سأعود .

الفصل السابع :

رجل .. لعبته الخطر!

أسمه : « معروف الحضرى » . كان فدائيا ، وكان بطلا . وعلى الرغم من أنه كان فدائيا ، وكان بطلا ، فأن قليلين جدا من الناس هم الذين عرفوا شخصه ، وأقل منهم الذين سمعوا بأسمه . اذ لم يكن من حظه ـــ وهو الفدائى البطل ـــ أن يكون له مكان فى مقاعد (السلطة) التى كان لها .. وسيظل لها ، فى كل زمان ومكان ، سرها .. وسحرها .. وكذلك قدرتها المذهلة على تحويل الدائرين فى فلكها ، والمتمسحين ببلاطها الى (صواريخ) شبيهة بهذه التى نطلقها فى المهرجانات والأعياد : بعضها له طاقة كاملة على الاشتعال فينطلق ، ويضىء ، ويظل مضيئا الى أن يبلغ مداه . وبعضها له القليل من هذه الطاقة ، فينطلق .. ويضىء للحظات ، ثم ينطفىء فى منتصف الطريق وبعضها ليس له كثير ولا قليل من هذه الطاقة .. فلا يشتعل ، ولا يضيىء ، وانما يتفتت فور أن يواجه الهواء . !!

كان هذا .. وما يزال ، ولسوف يظل ، هو حال (السلطة) مع الدائرين فى فلكها ، والمتمسحين ببلاطها .. ولان معروف الحضرى لم

يكن ، بالنسبة لها ، واحدا من هؤلاء .. ولا من اولئك .. فقد عاملته (السلطة) بالمثل : أهملته مثلما أهملها .. وأدارت له ظهرها مثلما أدار لها ظهره . وليتها قنعت من نفسها بأنها أهملته وأدارت له ظهرها ، وانما جرح كبرياء (السلطة) ــ وهي فى أول الأمر وآخره .. غانية ككل غانية ــ أن يدير لها (الحضري) ظهره .. فلا يتودد اليها ، ولا يقترب منها ، و يتعالى عن أن يكون فردا من ذلكم القطيع الذى أوتى موهبة التفنن فى إشعارها بفتنتها التى يدور لها كثير من الرؤوس وكثير من النفوس .. فكان أن كرهته أكثر، وقست عليه اكثر، وتحولت فأصبحت ، بالنسبة له ، كما لو كانت (قطة متوحشة) : أما أن تملك .. وإما أن تقتل . !!

ولكن ... من هو هذا الفدائى البطل التى كرهته (السلطة) وقست عليه لأنه تأبى عليها .. و بقى مصرا على الافلات من فخاخها ؟

لم يكن (معروف الحضرى) مجرد ضابط متألق فى جيش مصر . كذلك لم يكن « معروف الحضرى » مجرد عضو بارز فى تنظيم الضباط الاحرار، وانما كان شيئا أكبر من ذلك بكثير .. أنه واحد من الأوسمة العسكرية القليلة .. والجيدة .. التى تزين صدر مصر . وهو واحد من أبطالها الذين اذا أرادت أن تشير الى عشرة منهم لتباهى بهم غيرها ، لكان (الحضرى) واحدا من هولاء العشرة .. بل لعله أن يكون أولهم .

فى سنة ١٩٤٨ .. وعندما وصل الجنون الصهيونى الى ذروة وحشيته ، وراح الصهاينة يقتلون الشيوخ .. والأطفال .. والنساء .. و يبقرون بطون الحبالى ــ لم يستطع الصبر على هذه الوحشية عدد من ضباط مصر على رأسهم البطل أحمد عبدالعزيز الذى استشهد على ثرى

فلسطين . وكان من بينهم كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة . وحسن فهمى عبدالمجيد الذى صار، فيما بعد ، سفيرا لمصر فى المغرب . ومعروف الحضرى : فطلبوا من قيادتهم أن تأذن لهم بالتوجه الى فلسطين ليكون لهم شرف القتال دفاعا عن أرضها وعرضها . وقبلت القيادة برغبة هؤلاء الضباط الذين لم يكن عددهم يتجاوز أصابع اليدين .. شريطة أن يستقيلوا من القوات النظامية المصرية .

لم يتردد هؤلاء الضباط الأبطال لحظة فى تقديم استقالاتهم . فلقد كانوا ينظرون أمامهم وليس خلفهم .. وأمامهم كان ثمة (واجب مقدس) يدعوهم اليه . ولا مجال — فى مواجهة الواجبات المقدسة — للتردد ولا للتفكير فى أى شىء .. حتى لو كان هذا (الشىء) هو البيت .. والأهل .. والأبناء .. والمستقبل .

ومضى الرجال الى هدفهم .. فى رؤوسهم اصرار، وفى قلوبهم ايمان يهد الجبال . وبدأ الناس ، فى كل مكان ، يتسمعون بما راح « الكوماندز المصريون » — بقيادة أحمد عبد العزيز — يفعلونه . صارت أعمالهم وضرباتهم التى أخذوا يوجهونها الى الصهاينة فى عقر دارهم ، فى كل سمع ، وعلى كل لسان . وان هى الا أسابيع قليلة حتى كانت القوات العربية النظامية قد دخلت الى أرض فلسطين ، فعاد الفدائيون الأبطال الى صفوفها .. واستردوا رتبهم العسكرية .. وأصبحوا طليعتها فى كل عمل عسكرى خطير يكون مطلوبا فيه ما هو أكبر من الشجاعة .. وأقرب الى الانتحار !

*** أين .. وكيف عرفته ؟**

ذات يوم من أيام شهر يوليو سنة ١٩٤٨ .. همس فى أذنى هامس بأن أول قطار يحمل جرحى الميدان من ضباط وجنود ، سوف يصل الى محطة الحلمية فى الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم ، حيث يتقلون منه الى مستشفى الحلمية العسكرى . وفى ذلك الموعد ، كنت .. ومعى زميلى مصور « دار الهلال » ، فى انتظار هؤلاء الأبطال فى قلب المستشفى . ألتقطنا لهم أول صور نشرت لهم فى صحافة العالم العربى ، وأجريت مع نخبة منهم أول حوار صحفى حول الموقعة ، وكذلك الظروف التى أصيب فيها كل منهم . وبينما أنا فى الحديث مع واحد منهم ـــ الرائد طيار فوزى دسوقى ـــ اذا به يقول لى : « أسمع .. اذا لم تنجح فى أن تجعل معروف الحضرى (وأشار اليه حيث كان يرقد) يروى لك قصته .. وقصة المعركة التى أصيب فيها ، فلن تكون قد فعلت شيئا » .

أشعلت كلمات « فوزى دسوقى » فضولى الصحفى .. فتوجهت ، من فورى ، الى « معروف الحضرى » . كان ملفوف الرأس بالأربطة الطبية ، فلم يظهر منه غير فمه وعينيه .. وكان يبدو متعبا الى حد بعيد . ولكن الصحفى لا يملك حق التماس الأعذار للآخرين فيجعلهم يفلتون من يده ، فالعمل الصحفى فرصة .. اذا هى ضاعت فمن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، أن تعود .

وفى البداية ، وباصرار مهذب ، رفض « معروف الحضرى » أن يتكلم .. رفض أن يقول أى شىء . كان يرى أنه لم يفعل شيئا يتجاوز

حدود (الواجب) ... والواجب ، فى نظره ، لا يجوز التحدث عنه .. ولا التباهى بأدائه . لكننى ، فيما بينى و بين نفسى ، كنت قد صممت على أن أجعله ينطق .. يتكلم .. يحكى لى ما قال عنه زميله الطيار « فوزى دسوقى » : « أننى اذا لم أسجله ، فلن اكون قد فعلت شيئا » !

و بعد جدل طو يل من جانبه ، وصبر أطول من جانبى .. نجحت فى أن أجعل « معروف الحضرى » يتكلم .. يحكى لى قصته التى كانت ــ وبحق ــ واحدة من أروع قصص البطولة ، والجسارة ، والفداء .

ونشرت قصة « معروف الحضرى » فى مجلة « المصور » مستقله عن قصص زملائه الذين عادوا معه على نفس القطار .. من نفس المعركة . اذ كانت قصة متميزة بلونها .. و بطعمها .. وأيضا بجنونها . !!

ثم .. ثم صرنا صديقين . ورحت أتردد على المستشفى العسكرى ، بين يوم وآخر ، لز يارته ــ كصديق .. وليس كصحفى ــ ولم أكن أدرى أن علاقتى هذه بمعروف الحضرى انما هى مقدمة علاقتى بثورة ٢٣ يوليو كلها .. بحلوها ومرها . لكنها المقادير .. تنسج لنا دون أن ندرى ، ودون أن تكون لنا أية قدرة على أن نلاحظها أو نلحظها ، خيوطا لا نستطيع ، العمر كله ، الفكاك منها !!

....

....

وحينما كان « معروف الحضرى ، مايزال تحت العلاج من أصابته البالغة ، أعلنت اتفاقية الهدنة الأولى بين الفريقين المتحارين على أرض فلسطين .. وكان من بين بنود هذه الاتفاقية » أن يغلق ميدان القتال على من هم موجودون فيه ساعة توقيعها . فلا أحد يخرج منه . ولا أحد يأتى اليه . وجن جنون معروف الحضرى عندما علم بهذا البند من بنود الاتفاقية . اذ كان يستعجل الساعات قبل الايام .. والدقائق قبل الساعات .. لكى ينتهى علاجه و يعود الى ميدان القتال ، فيسترد فيه موقعه .. موقع « البطل » الذى صارت شجاعته .. وصارت جسارته أسطورة بين المقاتلين . !

وغادر « معروف الحضرى » المستشفى ، ليبقى فى بيته يوما واحداً . وعندما سألت عنه فى اليوم التالى ، جاءنى الجواب : أنه سافر الى الاسكندرية للاستجمام .. ولكن غيبته فى الاسكندرية طالت كثيرا عما قدرته لها .. ثم كانت المفاجأة الكبرى لى .. وأيضا لأسرته . عندما وصلنا منه خطابان فى وقت واحد . وكان الخطابان من « ميدان القتال » وليس من الاسكندرية التى زعم انه مسافر اليها ليستجم بضعة أيام !!

أما كيف دخل « معروف » ميدان القتال .. وكيف تسلل اليه .. وكيف تحدى شروط اتفاقية الهدنة ؟ فذلك هو سره ، وتلك هى جسارته .. جسارة رجل اعتنق هدفا جليلا ، وراح يمضى الى هذا الهدف وقد حمل روحه على كفه .. فلم يعد يعبأ بالخطر يتربص به فى كل خطوة يخطوها فلقد صار هذا الخطر لعبته . وصارت متعته الحقيقية هى محاورة الخطر .. ومداورته .. والتغلب ، فى النهاية ، عليه .

وكأنما كان « معروف الحضرى » يشعر بأن القتال لابد وأن يستأنف مرة أخرى بين الفريقين المتقاتلين . ومن هنا رأى أن مكانه الطبيعى مستحيل أن يكون فى المستشفى ، او فى الاسكندرية .. وانما مكانه الطبيعى هناك فى ميدان القتال . فان هى الا أيام معدودة من تسلله اليه ، حتى عاد القتال فاستؤنف بين العرب والصهاينة .

وفى الجولة الثانية من تلك الحرب ، وقعت القوة المصرية التى كانت تقاتل فى « الفالوجا » .. والتى كان « جمال عبد الناصر » واحدا من ألمع ضباطها ــ وقعت تحت الحصار .. ــ وأمتنع على هذه القوة الماء ، والغذاء ، والدواء . وصار الهم الأول ، والأكبر ، للقائد العام للقوات المصرية ــ اللواء أحمد فؤاد صادق ــ أن يتيح لهذه القوة المحاصرة اكبر فرصة للمقاومة والصمود الى أن تستطيع أن تكسر الحصار المضروب حولها . فلا تسلم ، ولا تستسلم ، ولا تكون ــ بتسليمها أو باستسلامها ــ سببا فى أنهيار معنويات بقية المقاتلين فى كل موقع .. وعلى كل خط من خطوط القتال .

ولكن كيف .. ؟ كيف تستطيع هذه القوة أن تصمد ، فلا تسلم ولا تستسلم ، وقد أمتنع عليها الماء .. والغذاء .. والدواء !!

اذن .. لابد « لمقومات الصمود » من أن تصل الى مقاتلي « الفالوجا » بكل وسيلة : بالفن العسكرى .. بالعقل .. بالحيلة .. بالجنون .. المهم أن تصل . وأستقر رأى القائد العام على تشكيل « قافلة » من الفدائيين يرتدى أفرادها ملابس العربان ، و يقودها

فدائى قادر على أن لا ينظر خلفه ، ولا يحسب حسابا لعمره ، ويمضى الى قلب النار.. وكأنه ماض الى نزهة ..

ولم يجهد القائد العام نفسه كثيرا فى البحث عن هذا « الفدائى » اذ كان يعرف « معروف الحضرى » ... وكانت له معه ، من قبل ، تجارب صرفته تماما عن التفكير فى أحد غيره .

تهيأ « معروف » لملاقاة الموت . خلع زيه العسكرى ، وارتدى زى العربان ، وانطلق الى « الفالوجا » على رأس « القافلة » المحمله بالماء ، وبالغذاء ، وبالدواء . وراح يمارس مع « الخطر » لعبته المفضلة . راح يحاوره ، ويداوره ، ويتغلب عليه .. حتى وصل ، فى النهاية ، الى زملائه المحاصرين فى « الفالوجا » حاملا اليهم أول شحنات الثبات .. والصمود .. والتحدى .

قال لى اللواء فؤاد صادق ــ وهو يروى قصة أول قافلة قادها «معروف الحضرى» الى « الفالوجا »ــ أنه ظل طوال الليل متيقظا لا يغمض له جفن ، الى أن دق جهاز اللاسلكى فى غرفته حاملا اليه نبأ وصول « معروف » وقافلته سالمين . وكانت هذه هى المرة الأولى . وربما الأخيرة التى بكى فيها القائد العام .. بكى من الفرحة .

ولأن النجاح يجر النجاح .. فقد تكررت العملية مرة ومرات ، حتى كانت مرة حاور فيها « معروف » الخطر ، وداوره ، لكنه فى هذه المرة ، لم يستطع التغلب عليه . وقع فى كمين صهيونى . وكانت معركة بينه وبين أفراد هذا الكمين ، ظل يطلق فيها الرصاص عليهم حتى نفدت آخر

رصاصة كانت فى جعبته . وعندئذ ، دخل معهم فى معركة بالسلاح الابيض . لكنهم كانوا كثرة .. فغلبت كثرتهم شجاعته . وأخذوه الى « تل أبيب » أسيرا .

*** عبدالناصر .. لأول مرة !**

قلت لك ، فيما سبق من سطور ، أن تعرفى على « معروف الحضرى » ، فى مستشفى الحلمية العسكرى ، عندما جاء اليه جريحا من ميدان القتال ، كان ــ وبترتيب عجيب من القدر ــ هو بداية معرفتى بثورة ٢٣ يوليو وهى لم تزل ، بعد ، جنينا فى باطن الغيب . !! فلقد وصلنى « معروف » ، ومن ميدان القتال ، بأبطالها . كان يبعث لى ، أسبوعيا ، برسالة تحمل أخبارهم . منها ما كنت أنشره . ومنها ما كنت أحتفظ به لنفسى لانه لم يكن قابلا للنشر . ولعل أول صورة نشرت فى العالم كله لجمال عبدالناصر ، فى وقت لم يكن أحد ، فى العالم كله .. بل وفى مصر نفسها ، قد سمع بجمال عبدالناصر .. هى تلك التى ألتقطها له « معروف الحضرى » اثناء حصار « الفالوجا » ، وبعث بها الىّ من فنشرتها فى مجلة « المصور » مع بقية أخبار « الفالوجا » التى كان الشعب ، فى مصر ، يترقبها باللهفة كلها .. وبالقلق كله .

ولكن .. لماذا كان « عبدالناصر ، بالذات ، دون غيره من الضباط ، هو الذى حرص « معروف الحضرى » على أن يلتقط له صورة يبعث بها الىّ لكى أنشرها فى « المصور » ؟ !

ربما لانه كان « اركان حرب » ، تلك القوة المصرية التى كانت واقعة تحت الحصار .

وربما لان « معروف » كان يستشعر، باحساسه الثورى ، ذلك « الدور الخطير» الذى كان مايزال مختبئاً وراء أستار الغيب .. فى انتظار « عبدالناصر » .

وهل كان أحد ، فى الدنيا كلها ، يتصور أن هذا « الضابط الشاب » المحاصر مع زملائه فى « الفالوجا » سوف يصبح ، بعد أربع سنوات فقط من ذلك الحصار، حديث الدنيا كلها .. بأركانها الأربعة ؟ !

وهل كان هو نفسه يعرف .. أو يتوقع .. أن يصير له على « مسرح الدنيا » ، بأركانها الأربعة ، كل هذا « الدور الخطير» الذى صار له . ؟!

حقيقة .. ما أعجب القدر.. وما أعظم قدرته مخرجا للملاحم الانسانية لايدانيه فى اخراجها مخرج مهما أوتى من براعة ، ومن فن ، ومن قدرة جبارة على تطويع كل أساليب الحبكة والاتقان !!

....

....

بقى « معروف الحضرى » أسيرا فى « تل أبيب » عدة شهور، توقف بعدها القتال ، وبدأت عملية تبادل الأسرى . فعاد (معروف) الى مصر، بعد أن كان قد منح أرفع وسام عسكرى .. مع ترقيته ــ استثنائيا ــ الى الرتبة االأعلى ، تقديرا لبطولات لم يقدرعليها كثيرون غيره . بل لعلها ــ وهذا حق ــ لم يكن ليقدرعليها أحد سواه .

ثم .. ثم دارت الأيام . دارت واحدة من دوراتها العجيبة التى تأتى معها بما ليس فى الحسبان . قامت ثورة ٢٣ يوليو . ومالبث « صانعها » أن غرق ، والى أذنيه ، فى مشكلات الحكم .. وأيضا فى مشكلات الثورة .. و بدأ بعض الذين كانوا يحكمون بجواره ــ بدأوا ينتهزون فرصة غرقه فى بحور هذه المشكلات ، وتلك ، ليحكموا من ورائه .. وكان همّ هؤلاء الاول ــ وربما الأخير ــ أن يتصيدوا كل ذى تار يخ .. وكل ذى موقف .. وكل ذى بطولة .. ليجرحوه ، وليشوهوه ، لكى يخلو لهم ــ عن طر يق هذا التجر يح وذلك التشو يه ــ وجه عبد الناصر .. وايضا لكى يفقدوه الثقة فى الناس .. كل الناس .. ماعداهم . !!

ولان الرجل كان قد أعطى ثقته كاملة لهؤلاء الذين كانوا يحكمون بجواره ، فأصبحوا يحكمون من ورائه .. فقد صاروا ــ للآسف كله ــ مصدقين لديه فى كل مايقولونه و يفعلونه . لم ينظر اليهم ، مرة ، بعين الشك التى نظر بها يعقوب عليه السلام ، لابنائه حينما جاؤه بنبأ الذئب الذى أكل أخاهم « يوسف » . !! ولان « عبد الناصر » لم ينظر ، يوما ، الى هؤلاء بهذه العين .. كان طبيعيا أن يستمرأوا المرعى ، وان يمضوا فى الشوط الى نهايته فى تشو يه كل ذى تار يخ ، وكل ذى موقف ، وكل ذى بطولة .

وفى سنة ١٩٥٤ ــ جاء الدور على « معروف الحضرى » أقتنصوه أقتناصا ، نسبوا اليه ــ وما كان أسهل ذلك عليهم ــ أنه يدبر لقلب نظام عبد الناصر . وصدق الرجل . صدق لانه كان يعرف « معروف الحضرى » با كثر مما يعرفه أحد غيره . كان يعرف شجاعته ، و يعرف

جسـارته ، و يعرف أنه عاجز عن التردد لحظة واحدة فى الاقدام على أى شىء .. وعلى كل شىء .. متى آمن بأنه صواب . !!

ووضع « معروف » فى الاعتقال رهن البراءة أو السجن .. ثم نقل من المعتقل الى المستشفى العسكرى العام للعلاج من مرض أصابه . وذات مساء ، دق التليفون فى منزلى . كان المتكلم « معروف الحضرى » قال لى أنه يتكلم من المستشفى ، و ير يدنى أن ألقاه هناك فى أمر لا يحتمل التأجيل .

أوقعتنى المكالمة فى حرج بالغ مع نفسى . فلست أستطيع أن أتخلى عن تلبية ندائه . لكننى لوذهبت اليه ، فمن الممكن ، وسهل جدا ــ وما كانت قصة « سينا كايرو » ببعيدة عن خاطرى ــ أن أصبح ، وفى غمضة عين ، شر يكا له فيما هو منسوب اليه . فماذا أصنع اذن ؟ .

قررت أن ألقاه . ولكن ، بعد أن أستأذن « عبدالناصر » حتى يكون على علم مسبق بهذا اللقاء ، درأ لأية تهمة يمكن أن تلاحقنى نتيجة لذهابى الى « معروف » بغير علمه . لكننى ، يومها ، لم أتمكن من لقاء « عبدالناصر » .. فتوجهت الى « عبدالحكيم عامر » ــ وكان ، وقتها ، يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة ــ رو يت له قصة المكالمة التى دارت بينى و بين « معروف الحضرى » .. وقلت له أننى حر يص على تلبية ندائه ، لكننى حر يص أيضا على أن يتم هذا بعلمكم . فقال لى ــ وهذه شهادة لله .. وللحق ــ : « أنت ادرى الناس بمدى اعزازنا لمعروف . وأنا أقول لك ــ و بلسان « جمال » أنه يهمنا أن تلقاه ــ واذا

كانت له أية طلبات .. فانه يسعدنى أن تعود الىّ بها ، فلعلى أستطيع أن أجيبها له » ..

وذهبت الى « معروف » .. قال لى : أنه علم أن التهمة التى نسبها اليه « القناصون » لم تثبت ضده . لكنه علم ، ايضا ، أنه سوف يستبعد من صفوف الجيش . وأضاف : « ان العسكرية عندى ليست حرفة ، وانما هى شرف . فأنا ضابط ، وأخى ضابط ، وأبى كان ضابطا ، وجدى أيضا كان ضابطا وأستشهد فى حروب السودان . وأنا مستعد ــ اذا كان الأخوة فى مجلس الثورة خائفين منى ــ أن أغادر مصر الى آخر بلاد الدنيا .. أنا مستعد لأن أعمل ملحقا عسكريا فى الصين ، أو حتى فى منغوليا . فقط أنا لاأريد (وهنا امسك معروف ببدلته العسكرية) ان أخلع عن نفسى هذا الشرف . أننى طلبتك لكى أحملك أمانة أن تذهب اليهم وتبلغهم رغبتى هذه . فلقد سمعت كلاما بأنه قد يفرج عنى غدا .. أو بعد غد .. لكننى أخشى أن يتخذ قرار الاستغناء عن خدماتى فى الجيش قبل الافراج عنى . وقد قررت أن أذهب فور خروجى من هنا ، الى « جمال » فى بيته .. ولوضربونى على باب البيت بالمدافع » !!

* سبق السيف العزل !

غادرت « معروف » عائدا الى « عبدالحكيم عامر » .. ونقلت اليه ــ وبالحرف ــ كل ماحملنى « معروف » أمانة نقله اليهم . فارتسم الاسى على وجه « عبدالحكيم » .. وأخذ ينقر بأصابعه على زجاج

مكتبه ، قبل أن يقول : « للأسف .. سبق السيف العزل . فبالأمس فقط ، وقع « جمال » قرار الاستغناء عن خدماته » .

بعد ذلك بأيام قليلة .. قابلت « عبدالناصر » . فرأيت ـــ من باب الاحتياط الكلي ـــ أن أروى قصة لقائى مع « معروف الحضرى » بحذافيرها خشية أن يكون « عبدالحكيم عامر » لأى سبب من الأسباب ، لم يروها له . وقلت لعبد الناصر ، بين ما قلت ، أن « معروف » قال لى : أنه سيذهب اليك فور اللحظة التى سيفرج عنه فيها .. ولو ضربوه على باب بيتك بالمدافع !!

ضحك « عبدالناصر » وقال : « هو ده معروف الحضرى .. يعمل أى حاجة فى الدنيا مادام أقتنع بها » .. ثم سكت لحظة . و بعدها أضاف : « فعلا جانى كما قال لك . ولعلى نجحت فى أن أرضيه . لقد كان صعبا جدا على نفسى ـــ أنا بالذات ـــ أن اخرجه من الجيش . ولكن كان صعبا اكثر أن اتركه يبقى فيه . » !

*** وتابعه القناصون !**

ورضى « معروف الحضرى » بقدره . كان صعبا أن يرضى . لكنه رضى .. فمن ذا الذى يستطيع أن يسيّر قدره وفق ما يحب ويهوى ؟ !

أن « نابليون » نفسه ـــ وقد أطلق عليه المؤرخ الألمانى العظيم « أميل لودفيج » لقب (رجل الأقدار) لكثرة ماسارت الأقدار وفق مشيئته ـــ لم يستطع أن يمضى فى التحكم فى هذه « الاقدار » الى مالا نهاية . فاذا هى ، على حين غفلة منه ، تخذله .. وتهزمه .. وتحوله من « امبراطور »

قوى مخيف .. يلقى أسمه الرعب فى قلوب الدنيا بأسرها ، الى مجرد أسير كسير تحتويه جزيرة صغيرة لعله لم يكن قد سمع بها ، ولا وقعت عيناه عليها فى خريطة الدنيا التى كان يتطلع إليها مع مطلع كل يوم ليختار منها البلد الذى قرر أن يخضعه لسيطرته .. ولنفوذه وسلطانه . !!

رضى « معروف » بقدره . ومضى فى ركب الحياة ، فأختار لنفسه صناعة جديدة .. صناعة تحتاج من صاحبها الى صبر الرجال ، وعزم الرجال ، وارادة الرجال . ولان شيئا من هذا كله لم يكن ينقصه ، فقد أشترى قطعة أرض رملية بالقرب من مدينة الاسماعيلية . ومضى بأسلحته الخاصة .. أعنى بالعزم و بالصبر ، و بالارادة والتصميم ، يجهزها لكى تفيض بالخير .. ولكى تكون شاهد صدق على أن « بطل الفالوجا » لم ينكسر ، ولم يفقد شيئا من عزيمته .. ولا من ارادته وتصميمه .

لكن « القناصين » أبوا أن يتركوه لأرضه . وكأنما جرح كبرياءهم أنه أفلت مرة من شباكهم . فعاودوا معه الكرة فى سنة ١٩٦٥ . وفى هذا الوقت ، بالذات ، كان هؤلاء القناصون قد صاروا أقوى . بينما كان « الرجل الكبير » ــ عبدالناصر ــ قد صار أضعف !! صار أضعف ــ باطلاق ثقته بغير ما حدود ــ فى هؤلاء القناصين ، و بتصديقه المطلق لأكذوبة كبرى نسجوها وروجوها .. وهى : أنه لولاهم .. ولولا « عيون الصقر » التى يتمتعون بها .. لما بقى عبدالناصر .. ولما بقى نظامه يوما واحدا !!

وربما كانت (غلطة العمر) فى حياة هذا الرجل الكبير أنه ـ على ذكائه، وحصافته، ونفاذ بصيرته ـ أنه ترك نفسه يقتنع بهذه الاكذوبة الكبرى . !! ولانه اقتنع .. فقد ترك كل شيء ـ للأسف الشديد ـ يحدث .. تركه يحدث مع أحسن الرجال، ومع أشرف الرجال !!

هكذا جاءوا اليه بمعروف الحضرى مرة ثانية . وكانت تهمة « معروف » فى هذه المرة أنه يدبر ـ ليس فقط لقلب نظام عبدالناصر ـ وانما ايضا لاغتيال حياته . !!

وفى هذه المرة كانت (الطبخة) جد متقنة . وكان طبيعيا أن تكون كذلك . فبين سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٦٥ ، كانت هناك احدى عشرة سنة اضافية من « الخبرة » بفنون التلفيق، والتلطيخ، واتهام الناس بما لم تنطق به ألسنتهم ولا ارتكبته أيديهم . !!

ثم .. ثم قدم « معروف الحضرى » .. الفدائى البطل .. الى المحاكمة أمام (محكمة خاصة) كان يرأسها لواء من القوات المسلحة أسمه (الدجوى) . ولان هذا (الدجوى) كان يقرأ الأحكام الصادرة ضد الذين ساقتهم أقدارهم للمثول أمامه . من ورقة لم يكتبها ، وانما كتبها له ـ مسبقا ـ هؤلاء القناصون أنفسهم .. فقد « قرأ » الحكم على « بطل الفالوجا » بالاشغال الشاقة .. لمدة ١٥ سنة !!

ولكن عين السماء لا تنام .

سقطت ، فى أعقاب هزيمة ٦٧ .. وكنتيجة حتمية لها ـ سقطت « دولة المخابرات » .. وكان لسقوطها دوى لعله كان اكبر بكثير من

دوى المدافع التى سمعناها ابان حرب ٦٧ نفسها . ومع سقوط « دولة المخابرات » .. سقطت أيضا أكاذيبها ، وتلفيقاتها ، وأسترد الأبرياء براءتهم .. وكان طبيعيا أن يكون « معروف الحضرى » فى طليعة هؤلاء الأبرياء . فعاد ، من فوره ، الى أرضه .. الى صناعة الصبر، والعزيمة ، والارادة ، والتصميم . وظل كذلك الى أن انتقل الى رحاب الله ومعه ايمان لم يفتر، ولم يتبدد — على الرغم من كل الهجمات الشرسة التى شنها الظلم عليه — بأن دولة الباطل ساعة .. لكن دولة الحق الى قيام الساعة .

رقم الايداع

٨٦/٣١٤٢

مع أولئك الرجال الذين أنعقدت أواصر الصداقة بينى وبينهم ـ قبل أن تقوم الثورة بسنوات .. وبعد أن قامت ـ كانت لى لقاءات .. وجلسات .. و.. وصدامات أيضا. وهذه اللقاءات، والجلسات، والصدامات هى التى اشتملها (شريط الذكريات) الذى تنطوى عليه دفتا هذا الكتاب الذى بين يديك .. والذى سوف ترى، من خلاله أننى لم أكن بمثابة (جهاز تسجيل) مهمته الوحيدة أن يلتقط ويسجل .. دون أن يكون له، فيما يلتقط ويسجل، رأى ولا رؤية. وانما كنت ـ وعلى العكس من أى (جهاز تسجيل) ـ التقط واسجل .. وكانت لى، فى ذات الوقت، رؤيتى الخاصة .. وأيضا رأيى الخاص فيما كنت التقط وأسجل .. وكان بعضه يملأ قلبى بالرعب من أن تتعثر خطى الثورة ... أو ان ترتد عن مسيرتها. ولقد أوشك شىء من ذلك أن يحدث بالفعل فى مارس سنة ١٩٥٤، نتيجة لتلك الخلافات فى الرأى .. وفى الرؤية .. والتى لمحتها، مبكرا جدا، تطل برأسها على رفاق السلاح الذين قاموا بثورة تعتبر واحدة من اعظم ثورات العصر.



الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد القاهرة ـ ت

المطبعة الفنية ت: ٩١١٨٦٢